آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وابن عاشور: دراسة موضوعية

2023

رسالة ماجستير

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

Tareq Hussein JUMAAH

المشرف

Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI

آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وابن عاشور:
دراسة موضوعية

Tareq Hussein JUMAAH

المشرف
Dr. Öğr. ÜyesiMohamed Amıne HOCINI

بحث أُعدّ لنيل درجة الماجستير في قسم العلوم الإسلامية الأساسية بمعهد الدراسات العليا بجامعة كارابوك في تركيا

كارابوك
حزيران/2023

المحتويات

المحتويات 1
صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية) 4
صفحة الحكم على الرسالة 5
DOĞRULUK BEYANI 6
تعهد المصداقية 7
مقدمة 8
ملخص الرسالة 10
ÖZET 11
ABSTRACT 12
ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ 13
بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية) 14
ARCHIVE RECORD INFORMATION 15
الاختصارات 16
موضوع البحث 17
أسئلة البحث 17
أهداف البحث وأهميته 17
الطريقة المتبعة في الدراسة (منهج البحث) 18
إشكالية الدراسة 18
حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث 19
ومن الصّعوبات في هذا البحث: 19
أسباب إختيار الموضوع: 20
الدراسات السابقة 20
التمهيد 23
أولاً ـ ترجمة الإمام القرطبي: 23
1 ـ السيرة الشخصية: 23
2 ـ السيرة العلمية: 24
ثانياً ـ ترجمة الشيخ محمد الطاهر إبن عاشور: 26
1 ـ السيرة الشخصية: 26

2 ـ السيرة العلمية: 28
ثالثاً ـ معاني المدح والثناء لغةً واصطلاحاً: 31
1 ـ معنى المدح لغةً واصطلاحاً: 31
2 ـ معنى الثناء لغةً واصطلاحاً: 33
الفصل الأول: منهج الإمام القرطبي في عرض مفهومي المدح والثناء في تفسيره الجامع لأحكام القرآن 36
المبحث الأول: المدح والثناء على الله وملائكته ورسله وكتبه: 37
المطلب الأول: المدح والثناء على الله وملائكته: 37
المطلب الثاني: المدح والثناء على الرسل وكتبهم، والعباد الصالحين: 45
المبحث الثاني: المدح والثناء على الأزمنة والأمكنة: 55
المطلب الأول: مدح الأزمنة: 55
المطلب الثاني: مدح الأمكنة والثناء عليها: 64
المبحث الثالث: المدح والثناء على الأطعمة والأشربة: 69
المطلب الأول: المدح والثناء على الأطعمة: 69
المطلب الثاني: المدح والثناء على الأشربة: 76
المبحث الرابع: منهج القرطبي في تفسير آيات المدح والثناء: 84
المطلب الأول: الاهتمام باللغة: 84
المطلب الثاني: الاهتمام بالنحو والصرف: 87
المطلب الثالث: الاهتمام بأسباب النزول: 89
المطلب الرابع: الاهتمام بعلم القراءات: 89
المطلب الخامس: الاهتمام بالسيرة النبوية: 91
المطلب السادس: الاهتمام بعلم التاريخ: 92
المطلب السابع: الاهتمام بعلم الفقه: 93
المطلب الثامن: الاهتمام بعلم العقائد والكلام: 95
الفصل الثاني: منهج إبن عاشور حول مفهومي المدح والثناء في تفسيره التحرير والتنوير: 97
المبحث الأول: المدح والثناء على الله وملائكته ورسله وكتبه: 97
المطلب الأول: المدح والثناء على الله وملائكته: 98
المطلب الثاني: المدح والثناء على الرسل وكتبهم، والعباد الصالحين: 104

المبحث الثاني: المدح والثناء على الأزمنة والأمكنة: 110
المطلب الأول: مدح الأزمنة: 110
المطلب الثاني: مدح الأمكنة والثناء عليها: 115
المبحث الثالث: المدح والثناء على الأطعمة والأشربة: 121
المطلب الأول: المدح والثناء على الأطعمة: 121
المطلب الثاني: المدح والثناء على الأشربة: 127
المبحث الرابع: منهج إبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء: 131
المطلب الأول: الاهتمام بالمأثور: 131
المطلب الثاني: الاهتمام بالقراءات: 132
المطلب الثالث: الاهتمام باللغة: 133
المطلب الرابع: الاهتمام بالنحو والبلاغة: 134
المطلب الخامس: الاهتمام بالأحداث التاريخية والحقائق العلمية: 135
الفصل الثالث: مقارنة بين منهجي القرطبي وإبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء 137
المبحث الأول: مواضع الائتلاف والأختلاف في تفسير آيات المدح والثناء بين القرطبي وإبن عاشور: 137
المطلب الأول: مواضع الائتلاف في الثناء على الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله 137
المطلب الثاني: مواضع الائتلاف في الثناء على الأزمنة والأمكنة المباركة: 143
المطلب الثالث: مواضع الائتلاف في الثناء على الأطعمة والأشربة المباركة: 148
المبحث الثاني: مواضع الاختلاف في تفسير آيات المدح والثناء بين القرطبي وإبن عاشور 152
المطلب الأول: في الثناء على الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله: 152
المطلب الثاني: في الثناء على الأزمنة والأمكنة المباركة، والأطعمة والأشربة المباركة: 155
المطلب الأول: النتائج المستخلصة من مواضع الائتلاف ومواضع الاختلاف: 155
المطلب الثاني: النتائج المستخلصة من منهج القرطبي في تناول آيات المدح والثناء ومنهج إبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء 157
الخاتمة 159
المصادر والمراجع 160
السيرة الذاتية 170

صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية)

Tareq Hussein JUMAAH tarafından hazırlanan "KURTUBÎ VE İBN ÂŞÛR TEFSİRLERİNDE ÖVGÜ VE TAKDİR AYETLERİ: OBJEKTİF ARAŞTIRMA" başlıklı bu tezin Programı Seçin olarak uygun olduğunu onaylarım.

Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI .....

Tez Danışmanı, Temel İslam Bilimleri

Bu çalışma, jürimiz tarafından Oy Birliği ile Anabilim Dalınızı buraya yazınızda Doktora tezi olarak kabul edilmiştir. 02.06.2023

Ünvanı, Adı SOYADI (Kurumu) **İmzası**

Başkan : Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI (KBÜ) .....

Üye : Dr. Öğr. Üyesi Ashraf Mohammed Z. AL-DULAIMI (KBÜ).....

Üye : Doç. Dr. Hikmetullah ERTAŞ (ZBAÜ) .....

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu, bu tez ile, Programı Seçin derecesini onamıştır.

Prof. Dr. Müslüm KUZU .....

Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdürü

صفحة الحكم على الرسالة

أصادق على أن هذه الأطروحة التي أعدت من قبل الطالب طارق حسين جمعة بعنوان " آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وابن عاشور: دراسة موضوعية" في برنامج الدراسات العليا هي مناسبة كرسالة ماجستير.

Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI .....

مشرف الرسالة، العلوم الإسلامية الأساسية

قبول

تم الحكم على رسالة الماجستير هذه بالقبول بإجماع لجنة المناقشة بتاريخ.

02/06/2023

التوقيع **أعضاء لجنة المناقشة**

رئيس اللجنة : Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI (KBÜ) .....

عضواً :Dr. Öğr. Üyesi Ashraf Mohammed Z. AL-DULAIMI (KBÜ).....

عضواً : Doç. Dr. Hikmetullah ERTAŞ (BEÜ) .....

تم منح الطالب بهذه الأطروحة درجة الماجستير في قسم العلوم الإسلامية الاساسية من قبل مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك.

Prof. Dr. Müslüm KUZU .....

مدير معهد الدراسات العليا

DOĞRULUK BEYANI

Yüksek lisans tezi olarak sunduğum bu çalışmayı bilimsel ahlak ve geleneklere aykırı herhangi bir yola tevessül etmeden yazdığımı, araştırmamı yaparken hangi tür alıntıların intihal kusuru sayılacağını bildiğimi, intihal kusuru sayılabilecek herhangi bir bölüme araştırmamda yer vermediğimi, yararlandığım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluştuğunu ve bu eserlere metin içerisinde uygun şekilde atıf yapıldığını beyan ederim.

Enstitü tarafından belli bir zamana bağlı olmaksızın, tezimle ilgili yaptığım bu beyana aykırı bir durumun saptanması durumunda, ortaya çıkacak ahlaki ve hukuki tüm sonuçlara katlanmayı kabul ederim.

Adı Soyadı: Tareq Hussein JUMAAH

İmza :

تعهد المصداقية

أقر بأنني التزمت بقوانين جامعة كارابوك، وأنظمتها، وتعليماتها، وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد أبحاث الماجستير والدكتوراه أثناء كتابتي هذه الأطروحة التي بعنوان:

"آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وابن عاشور: دراسة موضوعية"

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث العلمية، كما أنني أعلن بأن أطروحتي هذه غير منقولة، أو مستلة من أطروحات، أو كتب، أو أبحاث، أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أية وسيلة إعلامية باستثناء ما تمت الاشارة إليه حيثما ورد.

أسم الطالب: طارق حسين جمعة

التوقيع: .....

مقدمة

الحمد كلّ الحمد لله سبحانه على جميل إنعامه، وله الشّكر على بهيّ تفضّله وإحسانه، له الحمد على ما أنزله من الشّريعة السّمحاء، والسّنّة الغرّاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وجعل لعباده من علوم الفقه وأبوابه ما تُدمَغُ به الجهالة، وتُزالُ بنوره الضّلالة، إعذاراً وتحذيراً، وحجّةً وتنبيهاً. والصّلاة والسّلام على رسوله الأمين، خاتم المرسلين؛ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آله وصحبه الميامين، ومن اهتدى بهديه الحميد إلى يوم الدّين، أمَّا بعد:

أنزل الله تعالى هذا الكتاب الكريم المعجز، وأودعه من الأسرار والحكم، ومن الجلال والجمال ما لا يفنى، وعند تدبر آياته ومعانيه يقف القارئ في سوره على ظاهرة عجيبة تتكرر في كل سورة، وهي المدح والثناء على نفسه وعلى الملائكة والرسل والكتب وطوائف وجماعات عامة وأخرى خاصة، بأساليب متنوعة، وأفانين بليغة، تسحر اللب، وتخلب الفؤاد، وتقود العقل إلى التفكير في أسرار هذا المدح والمراد منه، وتدعو النفس البشرية إلى الانقياد والتسليم والخضوع لله تعالى ذو العظمة والقدرة، وإلى زيادة الإيمان والثبات أمام الفتن والمحن، والتعلم من محن الأنبياء والصالحين دروساً تستخلص منها العبر والعظات، ومن هنا انطلقت لدى الباحث فكرة البحث عن سر هذه الظاهرة وأساليبها، وعلى الرغم أن الفكرة نفسها متناثرة في كتب المفسرين، كل منهم أدلى دلوه فيها، فاستنبط من البدائع والعجائب ألواناً، إلا أن الدارسين في عصرنا لم ينهضوا لجمع ذلك الدر المتناثر في سلك منتظم، والوقوف على الفوائد والدلالات فيه.

وربما لا تنهض دراسة واحدة بجمع كل ما قاله المفسرون في هذا الباب، لذلك ارتئى الباحث أن يعقد مقارنة بين عَلَمين كبيرين أحدهما من رجال القرن السابع الهجري وهو الإمام القرطبي، والثاني من رجال القرن الرابع عشر الهجري، وهو الشيخ محمد الطاهر إبن عاشور التونسي، في تفسيريهما الجامع والتحرير،

كما أنه لا يخفى بعدُ أن المقارنةَ بين عَلَمين في عصرين مختلفين مع اختلاف الأساليب والمناهج والأدوات، لها أثر كبير في استخراج واستنباط الجديد والمفيد في هذا الحقل العلمي، لذلك شحذت العزيمة في دراسة آيات المدح والثناء في القرآن الكريم في تفسيري الجامع لأحكام القرآن والتحرير والتنوير دراسة مقارنة سائلاً المولى الهداية والتوفيق والعون.

ملخص الرسالة

تناول هذا البحث "آيات المدح والثناء في تفسيري الجامع لأحكام القرآن والتحرير والتنوير وتنحصر حدود هذا البحث في مباحث الأول ثناء الله تعالى على نفسه وملائكته وكتبه ورسله وعلى عباده الصالحين، والثاني ثناء الله تعالى على الأزمنة والأمكنة المباركة، وثناء الله على الأطعمة والأشربة المباركة، ويتضمن تمهيد حول معنى الثناء والمدح لغة واصطلاحاً عرض الباحث منهج القرطبي في تفسير آيات المدح والثناء في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، و منهج ابن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء في تفسيره التحرير والتنوير وللموازنة والمقارنة بين القرطبي وابن عاشور في تناولهما لآيات المدح والثناء من حيث المعاني والأساليب، وقد وصل الباحث إلى مجموعة من النتائج أبرزها أنه لا فرق بين المدح والثناء، فالمدح أحسن الثناء، والثناء مديح مع فعل يشعر بالتعظيم، وأنه لم يرد في القرآن الكريم لفظي المديح والثناء تصريحاً.

هذا وبيَّن البحث أن القرطبي كان يعتمد على معجم لغوي ينهل منه، يفسر الألفاظ ويهتم بالمفردة واشتقاقها ومعرفة أصلها، وحاول الاستدلال بالمأثور من القرآن الكريم والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وآراء المفسرين مع الترجيح بينها، والاحتجاج بكلام العرب شعرها ونثرها في تناوله لآيات المديح والثناء، بينما لجأ ابن عاشور إلى التركيز على البلاغة والنظم لبيان قضية الإعجاز القرآني هذا مع اهتمامه بالحوادث التاريخية والعلوم الكونية في تناوله لآيات المدح والثناء.

الكلمات المفتاحية: التفسير، الإعجاز القرآني، مدح وثناء، الإمام القرطبي، ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير.

ÖZET

Bu araştırma, "Kuran'ın hükümlerini, kurtuluşu ve aydınlanmayı kapsamlı yorumumda övgü ve övgü ayetleri ile ilgiliydi ve bu araştırmanın sınırları, Yüce Allah'ın kendisine, Meleklerine, kitaplarına, elçilerine ve salih kullarına ilk övgüsünün araştırılmasıyla sınırlıdır. , ikinci övgü, Yüce Allah'ın kendisine, meleklerine, kitaplarına, elçilerine ve salih kullarına ilk övgüsünün araştırılmasıyla sınırlıdır. kurtuluş ve aydınlanma yorumunda övgü ve övgü ayetlerini yorumlarken ve el-Kurtubi ile İbn Aşur arasında övgü ve övgü ayetlerini anlamlar ve yöntemler açısından ele almalarında dengeleme ve karşılaştırma yaptığı için Aşur'a Allah'a hamdolsun. vardır Araştırmacı, en belirgin olanı övgü ile övgü arasında bir fark olmaması, övgünün en iyi övgü olması ve övgünün yüce hissettiren bir eylemle övgü olması ve sözlü övgü olmaması olan bir dizi sonuca ulaştı. ve Kur'an-ı Kerim'de övgü.

Araştırma, El-Kurtubi'nin kelimeleri yorumlayabileceği dilsel bir sözlüğe dayandığını ve kökenlerinin kelime hazinesi, türetilmesi ve bilgisi ile ilgilendiğini ve Kur'an-ı Kerim ve Sünnetten ve sahabe ve takipçilerin sözlerinden ve tercümanların görüşlerinden aforizmalar çıkarmaya çalıştığını gösterdi. aralarında bir ağırlık ve Arapların şiir ve Nesir sözlerini çağırmak ve övmek.

Anahtar Kelimeler: Tefsir, Kuran mucizesi, övgü ve övgü, İmam el-Kurtubi, İbn Aşur, Kurtuluş ve aydınlanma Tefsiri.

ABSTRACT

This research dealt with "verses of praise and praise in my comprehensive interpretation of the provisions of the Qur'an, liberation and enlightenment and the limits of this research are limited to the research of the first praise of Allah Almighty on himself, his Angels, books, messengers and his righteous servants, the second praise of Allah Almighty on Blessed times and places, and praise of Allah on Ashur in interpreting the verses of praise and praise in his interpretation of liberation and enlightenment and for balancing and comparing between al-Qurtubi and Ibn Ashur in their treatment of the verses of praise and praise in terms of meanings and methods, he has The researcher reached a set of results, the most prominent of which is that there is no difference between praise and praise, praise is the best praise, and praise is praise with an act that feels exalted, and that there is no verbal praise and praise in the Holy Quran.

The research showed that al-Qurtubi was relying on a linguistic lexicon from which he could interpret the words and was interested in the vocabulary, derivation and knowledge of their origin, and tried to infer aphorisms from the Holy Quran and the Sunnah and the sayings of the companions and followers and the opinions of interpreters with a weighting between them, and to invoke the words of the Arabs poetry and Prose in and praise.

Keywords: Tafsir, Quranic miracle, praise and praise, Imam al-Qurtubi, Ibn Ashur, Tafsir of liberation and enlightenment.

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	Kurtubî Ve İbn Âşûr Tefsirlerinde Övgü Ve Takdir Ayetleri: Objektif Araştırma
Tezin Yazarı	Tareq Hussein JUMAAH
Tezin Danışmanı	Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI
Tezin Derecesi	Yüksek Lisans
Tezin Tarihi	02.06.2023
Tezin Alanı	Temel İslam Bilimleri
Tezin Yeri	KBÜ/LEE
Tezin Sayfa Sayısı	170
Anahtar Kelimeler	Tefsir, Kuran mucizesi, övgü ve övgü, İmam el-Kurtubi, İbn Aşur, Kurtuluş ve aydınlanma Tefsiri

بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)

عنوان الرسالة	آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وابن عاشور: دراسة موضوعية
اسم الباحث	طارق حسين جمعة
اسم المشرف	د. محمد امين حسيني
المرحلة الدراسية	الماجستير
تاريخ الرسالة	02.06.2023
تخصص الرسالة	العلوم الإسلامية الأساسية
مكان الرسالة	جامعة كارابوك–معهد الدراسات العليا
عدد صفحات الرسالة	170
الكلمات المفتاحية	التفسير، الإعجاز القرآني، مدح وثناء، الإمام القرطبي، ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير.

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Name of the Thesis	Expressions of Praise and Admiration in the Commentaries of Al-Qurtubi and Ibn Ashur: An Objective Study
Author of the Thesis	Tareq Hussein JUMAAH
Advisor of the Thesis	Asisst Prof Dr. Mohamed Amıne HOCINI
Status of the Thesis	Master
Date of the Thesis	02.06.2023.
Field of the Thesis	Basic Islamic sciences
Place of the Thesis	UNIKA/IGP
Total Page Number	170
Keywords	Tafsir, Quranic miracle, praise and praise, Imam al-Qurtubi, Ibn Ashur, Tafsir of liberation and enlightenment

الاختصارات

تح	تحقيق
د.ت	دون تاريخ
د. ط	دون طبعة
ط	طبعة
م	ميلادي
هـ	هجري

موضوع البحث

تناول هذا البحث آيات المدح والثناء في تفسيري القرطبي وإبن عاشور دراسة موضوعية "

أسئلة البحث

1 ـ ما معنى المدح والثناء؟

2 ـ كيف تجلى منهج القرطبي في مفهومي المدح والثناء في تفسيره؟

3 ـ ما هو مفهوم الطاهر إبن عاشور لآيات المدح والثناء؟ وما هو منهجه وأسلوبه في تفسير تلك الآيات؟

4 ـ ما هو وجه الائتلاف والاختلاف بين القرطبي وإبن عاشور في آيات المدح والثناء؟ وما هو الجديد الذي قدمه كل واحد منهما في هذا المجال؟ وما مواضع الاختلاف من حيث المعنى والأسلوب؟

أهداف البحث وأهميته

1 . بيان معنى المدح والثناء.

2 . بيان منهج القرطبي في التعامل مع آيات المدح والثناء.

3 . بيان منهج إبن عاشور في التعامل مع آيات المدح والثناء.

4 . بيان مواضع الائتلاف والاختلاف بين القرطبي وإبن عاشور في تناول آيات المدح والثناء في المعنى والأسلوب، وما هو الجديد الذي قدمه كل واحد منهما في هذا المجال.

الطريقة المتبعة في الدراسة (منهج البحث)

هناك العديد من المناهج التي تصلح للأقسام الأدبية والشرعية، وقد اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي لغرض التَّتبُّع، والتَّقصِّي بغرض الوصول إلى النتائج، ثم اعتمد الباحث المنهج التحليلي الذي يعتمد على تفكيك العناصر محل البحث، وكذلك التعامل مع الآيات على أساس المنهج التحليلي لأن التحليل والوصف خير وسيلة للتعليل والوصول إلى نتائج سليمة، ومن ثَمَّ دراستها بأسلوب متعمق وتحليل النتائج.

وقد استعرض الباحث الآيات التي هي موضوع البحث فاختار منها، لأن جمع جميع الآيات في دراسة واحدة أمر مستحيل يحتاج إلى مئات الصفحات، واعتمد الباحث منهج المقارنة الذي يعتبر طريقة فعالة لتوضيح أوجه التشابه والاختلافات بين منهجي القرطبي وإبن عاشور؛ حيث إن من خلال المنهج المقارن بإمكانك أن تقوم بتحليل دقيق للدراسة، وإجراء المقارنة عليها.

وقد قام الباحث بتوثيق الآيات القرآنية ووضعها بين قوسين مزهرين، وكذلك تخريج الأحاديث النبوية وإيراد حكم المحدثين والمحققين من حيث الصحة والضعف؛ والسبب في ذلك أن المفسرين القرطبي وإبن عاشور استندا إليها في الترجيح بين الآراء، كذلك ترجم الباحث للأعلام ترجمة مفيدة موجزة، وشرح الغريب من الألفاظ.

إشكالية الدراسة

تتجلى إشكالية البحث في محاولة الوقوف على الظاهرة القرآنية التي تتكرر بأساليب متنوعة وهي ثناء الله تعالى على نفسه وملائكته وكتبه ورسله، وطوائف وجماعات، وعلى بقاع وأزمنة مخصوصة، وأطعمة وأشربة بعينها، لفهمها وربطها بأسباب نزوله وفهم الدلالات والفوائد منها، مع تناثرها في كتب التفسير، بالإضافة

إلى الخلط بين مفهومي المدح والثناء عند كثير من الباحثين، وإبراز حد معين بينهما، مع التركيز على مواطن الإفادة وصحيح المنقول من تفسيري القرطبي وإبن عاشور.

حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث

حدود البحث:

هناك العديد من الحدود التي اصطلح عليها الباحثون في دراساتهم، ومن تلك الحدود الحد الموضوعي الذي يهتم بموضوع البحث نفسه، وموضوع بحثنا هو آيات المدح والثناء عند كل من القرطبي وإبن عاشور وعقد المقارنة بين منهجيهما في تناول هذه الآيات، وتكمن الفجوة العلمية في قلة الدراسات التي تناولت هذه الفكرة أولاً، وفي ندرة مناهج المقارنة لدى الباحثين ثانياً، وعلى الرغم من هذه الفجوة فإن الباحث سوف يعتمد على كتاب الله تعالى وما ذكره القرطبي وإبن عاشور في كتابيهما من أقوال وآراء.

ومن الصّعوبات في هذا البحث:

1 ـ أن آيات المدح والثناء تمتد على مساحة واسعة من الكتاب الكريم، مما يزيد في إرباك الباحث في منهج الانتقاء والاختيار المناسب لكل جانب وتوزيعه بشكل عادل على الدراسة بأكملها في جوانبها المتعددة.

2 ـ أن بعض المعاني التي تختص بآيات المدح والثناء عند كل من القرطبي وإبن عاشور غير واضحة الدلالة، لأنها تندرج ضمن الجو العام لتفسير الآية، وذلك يحوج إلى حصافة في النظر، وعمق في التحليل.

3- صعوبة التمييز بين المدح والثناء في الآيات القرآنية لاحتوائها على ذات المعنيين وأكثر.

أسباب إختيار الموضوع:

1. المشاركة في خدمة الدين الإسلامي بشكل عام وعلم التفسير بشكل خاص، ورفد المكتبة الإسلامية بمرجع يفيد منه الباحثون في مجال التفسير.
2. عدم وجود دراسة خاصة بحثت مفهوم المدح والثناء عند الإمام القرطبي والشيخ محمد الطاهر إبن عاشور التونسي
3. إفراد الآراء التفسيرية التي خالف فيها الإمام القرطبي في مسائل الجنايات والحدود في دراسة خاصة يسهل الرجوع إليها.
4. أن الظاهرة والفكرة لم يقف عليها الدارسون من وجهة نظر علم التفسير المقارن.
5. يعتبر البحث خطوة على الطريق الصحيح في معنى التدبر الذي أمرنا الله تعالى به في كتابه.

الدراسات السابقة

بعد السؤال والبحث عن الدراسات المختصة بهذا المجال، وعن المطبوعات من الكتب حول هذا الموضوع، لم أجد إلا دراستين الأولى هي:

1 ـ المدح والثناء/ دراسة قرآنية موضوعية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية/ غزة، كلية أصول الدين/ قسم التفسير وعلوم القرآن إعداد الطالب: أحمد طلال السموني، 2012م.

وقد تكونت دراسته من مقدمة وتمهيد وثلاث فصول عرف في التمهيد المدح والثناء لغةً واصطلاحاً دون تمييز وذكر بعض التعاريف القريبة المشابهة كالشكر والحمد، وفي الفصل الأول تحدثت الدراسة عن وجوه

مدح الله وثنائه في السياق القرآني، وفي الفصل الثاني تحدثت الدراسة عن نماذج من المدح والثناء في السياق القرآني، أما الفصل الثالث والأخير فتناولت فيه الدراسة ثمرات الثناء في الدنيا والآخرة.

والحقيقة أن هذه الرسالة العلمية نافعة ومهمة، ولكن هناك بعض الجوانب التي لم تتطرق لها (الثناء على الله تعالى، الملائكة، الكتب، الرسل) بينما الرسالة التي أعمل عليها تشتمل على موضوعات أخرى مثل ثناء الله تعالى على عباده الصالحين، وعلى ثناء الله تعالى على الأطعمة والأشربة.

ومن الانتقادات التي توجه للرسالة أن آيات المدح والثناء كثيرة جداً، لا تتسع لها رسالة أكاديمية جامعية واحدة محدودة بعدد صفحات.

ووجه الاستفادة من هذه الدراسة: أنها ساعدت في حصر الآيات التي تضمنت معنى المدح والثناء مما ساعد على أختصار الوقت وتقليل الجهد في البحث والتمحيص.

أما أهم ما تتميز به هذه الدراسة هو تناول هذا الموضوع (المدح والثناء) من خلال تفسيرين كبيرين قيميين، كما يقوم على بيان الدلالات والمعاني التي استنبطها كل من القرطبي وإبن عاشور، وهذا ما لم تقم به الدراسات السابقة، كما أن البحث الذي أعمل عليه يقوم على المقارنة، وإن فكرة المقارنة بين مناهج المفسرين أكبر أثراً في إيضاح تلك المناهج، وأجدى نفعاً في الوقوف على أثر السابق في اللاحق، و أعظم قدراً في تبيان الجديد من الأفكار والأساليب، فهذا البحث سيضيف إضافات مهمة من جوانب متعددة ومتنوعة ليست موجودة في الرسالة العلمية المقدمة في الجامعة الإسلامية في غزة.

2 ـ آيات المدح والشكر وربطها بمفهوم العبودية/ من بداية سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الأعراف: رسالة ماجستير، جامعة Çankırı/معهد العلوم الاجتماعية، إعداد الطالب: أنور جلال أحمد، 2023م.

قسم الباحث البحث إلى قسمين تناول في القسم الأول آيات الحمد (من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الأعراف) وربط بين مقام الآية ومقام العبودية، مراعياً السياق الذي وردت فيه، مع ربطها بالجو العام للسورة، وكذلك ناظراً إلى اللفتات البلاغية فيها، ودرسَ في القسم الثاني آيات الشكر (من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الأعراف) متحدثاً عن ثمرات الشكر، والأمثلة المضروبة والعِبر المستخلصة لزيادة النعم، وزيادة التعلق بالخالق سبحانه.

ولا شك أن البحث الذي قدمه الطالب مهم، لكنه مقتصر على عدد من السور، بالإضافة إلى تركيزه على الآيات التي ورد فيها لفظ (الحمد) ولفظ (الشكر) في سياقات مختلفة من الفاتحة إلى الأعراف، مع استنباط الدلالات وعرض آراء المفسرين.

بينما البحث الذي أعمل عليه مختلف تماماً، إذ إنه يستعرض آيات القرآن الكريم كاملة والتي فيها المدح والثناء على موضوعات بعينها، ودراسة هذه الظاهرة موضوعياً وسياقياً، مع تسليط منهج المقارنة بين مفسرَين على الدراسة، هما القرطبي وإبن عاشور، ولكل منهما أدواته وأسلوبه من أجل الوصول إلى نتائج شمولية في هذا الميدان.

التمهيد

أولاً ـ ترجمة الإمام القرطبي:

1 ـ السيرة الشخصية:

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي القُرْطُبي، وكنيته أبو عبد الله[1].

ولد المؤلف في مدينة قرطبة في أوائل القرن السابع الهجري، ولم تحدد المصادر سنة ولادته، ونشأ في ربوع قرطبة الغراء وتلقى العلم على يد بعض شيوخها الذي سيأتي ذكرهم، ويبدو أن اضطراب الأحول السياسية في مدينته اضطره إلى مغادرتها بعد أن سقطت من أيدي الموحدين ووقعت في يد الفرنجة سنة (633هـ)، وقد قتل والده في الدفاع عنها[2].

وانتقل القرطبي بعد مأساة الأندلس الحالكة إلى مصر كغيره من العلماء مثل الشاطبي وإبن مالك وغيرهما، واستقر أولاً في منية الخصيب[3]، ثم تنقل بين الإسكندرية والفيوم والمنصورة التي قدمها سنة(647هـ)، وزار

---

[1] هذه النسبة الأنصاري الخزرجي إلى الخَزرج بفتح الخاء وشكون الزاي وفتح الراء أحد قبيلي الأنصار، فإن الأنصار هم الأوس والخزرج، وأما القرطبي بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء في آخرها باء نسبة إلى قُرْطُبة مدينة عظيمة في وسط جزيرة الأندلس كانت سرير لملكها وقصبتها. علي بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **اللباب في تهذيب الأنساب**، (بيروت: دار صادر، د.ت.ط)،440/1، ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1995م)، 324/4 ؛ محمد بن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، تح: نبيلة عبد المنعم داود وفيصل السامر، (بغداد: منشورات وزارة الثقافة، 1984م)، 27/21، وفيه: ابن فرج، محمد بن أحمد ابن عثمان الشمس الذهبي، **تاريخ الإسلام**، تح: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م)، 229/15، إبراهيم بن علي ابن فرحون اليعمري المالكي، **الديباج المذهب** في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، (القاهرة: دار التراث للنشر، د.ت.ط)، 308/2، أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1997م)، 210/2.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 272/4؛ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1988م)، 432/6 ؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964م)، 272/4.

[3] العلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك الطائي الشافعي: إمام النحاة وحافظ اللغة، ولد سنة ستمائة أو سنة إحدى وستمائة، وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وأخذ العربية عن غير واحد، وجالس بحلب ابن عمرون وغيره، وتصدر بها لإقراء العربية، وكان إماماً في القراءات وعللها، وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، وأما النحو والتصريف فكان بحراً لا يجارى فيهما، أقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل وتوفي فيها سنة 672هـ، وصنف تصانيف مشهورة منها: الألفية السائرة في النحو، وتسهيل الفوائد، والضرب في معرفة **لسان العرب**، وشواهد التوضيح وغيرها. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،(صيدا/لبنان: المكتبة العصرية،) 233/6 ؛ والخصيب سماها ياقوت: مُنْيَة أبي الخُصَيب وقال: "مدينة كثيرة حسنة كثيرة الأهل

القاهرة والتقى بعلمائها ثم عاد إلى منية الخصيب سنة (649هـ)، وفي هذه البلدة من بلاد الصعيد الطيبة ألف القرطبي جل كتبه[1]، وبقي فيها إلى أن توفاه الله سنة (671هـ) بإجماع كل من أرخوا لحياته[2].

2 ـ السيرة العلمية:

نشأ المؤلف نشأة علمية وأخذ العلم عن شيوخ أجلاء وعلماء أفاضل في قرطبة ومصر، ولعل أبرز شيوخه بالأندلس إبن أبي حجة أحمد بن محمد القيسي القرطبي الفاضل معلم العربية والقراءات (ت 643هـ)[3]، وهو أول شيخ قعد القرطبي بين يديه للتعلم، وتلقى منه شيئاً من العربية والحديث والفقه، ومنهم أيضاً الربيع بن عبد الرحمن الأشعري آخر قضاة قرطبة المتوفى سنة (632هـ)[4] وأخذ عنه الإمام الحديث وسأله عن مسائل فقهية، ومنهم أبو عامر يحي بن عبد الرحمن الأشعري العالم الجليل الفقيه المحدث المتوفى (639) وقد نعته القرطبي بشيخنا في كثير من كتبه[5].

والسكن على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى". الحموي، **معجم البلدان**، 218/5 ؛ الشاطبي:هو القاسم بن فِيرُّه بن خلف أبو الخطاب إمام القراء ولد بشاطبة من أعمال الأندلس وتوفي بالقاهرة سنة 590هـ، وله من الكتب حرز الأماني القصيدة المشهورة في القراءات. ومعنى فيره باللغة العربية الحديد. محمد بن محمد بن يوسف شمس الدين ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1351هـ)، 20/2. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م)، 180/5.

[1] خليل بن أيبك الصلاح الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000م)، 87/2؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي، **التذكار في أفضل الأذكار**، تح: فؤاد زمرلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1408هـ)، 66،92، و محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تح: الصادق إبراهيم، (الرياض: دار المنهاج، ط1، 1425هـ)، 187/1، 796/1.

[2] ينظر المصادر التي ترجمت للقرطبي ومنها: ابن فرحون، **الديباج المذهب**،308/2، الذهبي، **تاريخ الإسلام**،229/15، الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 87/2، المقري، **نفح الطيب**، 210/2.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 272/4. محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، (بيروت/طرابلس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2012م)، 495/3.

[4] محمد بن عبد الله ابن الأبار البلنسي، **التكملة لكتاب الصلة**، تح: عبد السلام الهراس، (بيروت: دار الفكر، 1995م)، 260/1.

[5] القرطبي، الجامع لأحكام القرطبي، 237/3، المراكشي، الذيل والصلة، 495/3.

أما أبرز شيوخه بمصر أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي المالكي المعروف بإبن المزين نزيل الإسكندرية، المتوفى سنة (656هـ) وهو إمام فقيه محدث شرح صحيح مسلم[1]، وقد ذكره القرطبي من بين شيوخه، وكذلك الإمام مسند الإسكندرية رشيد الدين إبن رواج أبو محمد المتوفى سنة (648هـ)، وكان هذا الشيخ الجليل صلة القرطبي بالمحدثين الكبار، وعنه أخذ الأسانيد إليهم[2]، ومن العلماء الذين أخذ عنه بمصر شيخ الديار المصرية علي بن هبة الله اللخمي المتوفى (649هـ) سمع القرطبي منه بمنية الخصيب الفقه وغيره[3].

وعلى الرغم من شهرة القرطبي إلا أن كتب التاريخ أغفلت الكثير من طلابه، ولعل أشهر من عرف منهم إبنه شهاب الدين أحمد الذي أخذ الإجازة على يديه، وأصبح عالماً مشاركاً في الفنون[4]، ومنهم الإمام أبو جعفر الغرناطي أحمد بن إبراهيم الحافظ شيخ القراء صاحب كتاب الذيل على الصلة الذي ترجم فيه لأبناء بلده الأندلسيين، توفي سنة (708هـ)[5]، وقد ذكر القرطبي بعض العلماء بمصر فاستفاد وأفاد ومنهم الإمام القرافي الذي صاحبه القرطبي في سفره إلى الفيوم[6]، وكان القرافي إمام المعقولات في الفقه وأصوله بالديار المصرية في زمانه وقد توفي سنة (684هـ)[7].

وأثنى كثير من العلماء على القرطبي ومكانته العلمية وعلى أخلاقه وصفاته، ونحن نذكر مجموعة مما قالوا، قال إبن فرحون: "كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما

---

[1] ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 241/1، المقري، **نفح الطيب**، 211/2. محمد بن محمد بن عمر ابن سالم مخلوف المالكي، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، علق عليه: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003م)، 278/1.

[2] عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، (دمشق ـ بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1986م)، 418/7، المراكشي، الذيل والصلة، 495/3

[3] تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، (الرياض، القاهرة: دار هجر، ط2، 1413هـ)، 301/8.

[4] عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، **طبقات المفسرين**، تح: علي محمد عمر، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1396هـ)، 92/1.

[5] ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 188/1، السيوطي، **بغية الوعاة**، 291/1، ابن العماد، **شذرات الذهب**، 31/8.

[6] الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 87/2.

[7] هو العلامة الأصولي أحمد بن إدريس الصنهاجي شهاب الدين القرافي . الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 146/6، الزركلي، **الأعلام**، 94/1.

يعنيهم من أمور الآخرة"[1]، وقال المقري عنه: "أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف"[2]. وقال الإمام الذهبي عنه مثنياً على مكانته في العلم: "العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإمام القرطبي، إمام متفنّن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله"[3] . وقال إبن شاكر الكتبي عنه: "له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه، منها: تفسير الكتاب العزيز، وهو مليح إلى الغاية"[4].

وقد ترك المؤلف نتاجاً علمياً كبيراً أبرزه تفسيره المسمى الجامع لأحكام القرآن، والتذكار في أفضل الأذكار، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأمور الآخرة، وغيرها[5].

ثانياً ـ ترجمة الشيخ محمد الطاهر إبن عاشور:

1 ـ السيرة الشخصية:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن محمد الطاهر إبن عاشور التونسي العلامة المفسر[6].

ولد في العاصمة التونسية تونس سنة (1296هـ/1879م) من أسرة تمتد جذورها إلى الأندلس، واشتهرت بالعلم والفضل، وقد ترجم كتاب شجرة النور الزكية لجده (محمد الطاهر إبن عاشور) وذكر تقلده لمناصب مثل القضاء والإفتاء والتدريس، وأنه ترك مؤلفات مثل شرح البردة وحاشية على قطر الندى في علم النحو وغيرهما[7].

---

[1] ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 309/2.

[2] المقري، **نفح الطيب**، 210/2.

[3] الذهبي، **تاريخ الإسلام**، 229/15.

[4] ابن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، 27/21.

[5] وقف على كتبه ونظر فيها وذكر أسماءها: ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 309/2.

[6] الزركلي، **الأعلام**، 174/6، بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم** محمد الطاهر ابن عاشور/ حياته وآثاره، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1996م)، 35،

[7] ابن سالم مخلوف، **شجرة النور الزكية**، 560/1، الزركلي، **الأعلام**، 173/6.

ونشأ المؤلف نشأة علمية في رحاب سيدي أبي حديد، فحفظ القرآن الكريم ومجموعة من المتون العلمية وتلقى المبادئ التعليمية الأولى على يد الشيخ أحمد بن بدر الكافي[1]، ولما بلغ أربعة عشر عاماً إلتحق بجامع الزيتونة وبالتحديد سنة (1310هـ)، هذا الجامع الذي كان منارة علمية وإصلاحية في ذلك الوقت[2]، وقرأ على مشايخه قطر الندى وشرح المغني في النحو[3]، والسمرقندية والمفتاح في البلاغة[4]، والمزهر للسيوطي والمثل السائر لإبن الأثير في اللغة[5]، وقرأ متن السلم في علم المنطق[6]، والعقائد النسفية والعضدية في علم الكلام[7]، والورقات والتنقيح في أصول الفقه[8]، وقرأ الشفاء للقاضي عياض في السيرة النبوية[9]، هذا فضلاً عن دراسته علم الملل والأديان وعلم التاريخ.

---

[1] بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 37.

[2] محمد الحبيب ابن الخوجه، **جواهر الإسلام**، السنة العاشرة، العدد: 4، 1978م.

[3] كتابا قطر الندى والمغنى لعلامة العربية : جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد: من أئمة العربية. ولد سنة 708هـ. توفي سنة 761هـ، من أشهر كتبه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) و(شذور الذهب وشرحه) و(قطر الندى وبل الصدى) ينظر : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **بغية الوعاة** 2/ 68.

[4] السمرقندية متن في الاستعارة لأبي بكر الليثي، والمفتاح هو كتاب مفتاح العلوم للسكاكي: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي سراج الدين الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب: إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان، مولده ووفاته بخوارزم سنة 626 هـ، أشهر كتبه (مفتاح العلوم) في البلاغة. السيوطي، **بغية الوعاة**: 2/ 364، و **الأعلام**، 8/ 222.

[5] الإمام السيوطي أشهر من أن يعرف الجلال صاحب المؤلفات (ت 911هـ)، وابن الأثير: نصر الله بن محمد ضياء الدين الشيباني المولود بالموصل والمتوفى بها سنة (637) العلامة صاحب النثر والنظم. أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان الإربلي، **وفيات الأعيان** وأنباء أبناء الزمان:، تح: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط7، 1994م): 5/ 389.

[6] متن السلم: من أشهر المتون العلمية في اعلم المنطق، ومؤلفه هو عبد الرحمن بن محمد الأخضري المتوفة (983هـ).

[7] العقائد النسفية تأليف أبو حفص عمر بن محمد النسفي (ت 537هـ)، والعقائد العضدية من تصنيف عبد الرحمن بن أحمد العضد الإيجي (ت756هـ)، تأليف الزركلي، **الأعلام**، 60/5، 295/3.

[8] الورقات متن في أصول الفقه وضعه عبد الملك بن عبد الله الجويني إمام الحرمين المتوفى (478هـ)، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 468/18، والتنقيح كتاب مهم في أصول الفقه ألفه عبيد الله بن مسعود المحبوبي البخاري . الزركلي، **الأعلام**، 198/4.

[9] أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض ابن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة منها " الإكمال في شرح كتاب مسلم، ومنها: مشارق الأنوار، وكان مولد القاضي عياض بمدينة سبتة في النصف من شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة. وتوفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، وقيل في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3/ 483، و **الأعلام**، 5/ 99.

وأضاف إلى هذه الثقافة الإسلامية الرحبة تعلم اللغة الفرنسية على يد أستاذه محمود بن وناس المحمودي[1]، وبعد دراسة دامت سبع سنوات في جامع الزيتونة حصل على شهادة التطويع سنة (1317هـ/1899م) [2]، ولما أكمل تعليمه أقبل على التدريس في الجامع الأعظم سنوات عديدة، وأقبل على نشر مقالات وأبحاث في عدد من المجلات العلمية مثل الهداية الإسلامية والمجلة الزيتونية[3]، وقد ذاع صيته في المحافل فعين مدرساً في المدرسة الصادقية سنة (1321هـ/1904م)، وعضواً في إدارتها سنة (1326هـ/1909م) [4]، ثم نائباً عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة لكفاءته، ثم سمي عضواً بلجنة الإصلاح مرتين الأولى سنة (1338هـ/1910م)، والثانية سنة (1342هـ/ 1924م)[5].

وما زال إبن عاشور يترقى في المناصب لفكره الإصلاحي النير، وحصافة تفكيره إلى أن عين شيخ الإسلام المالكي سنة (1350هـ/ 1932م)، وأسندت إليه رئاسة الجامعة الزيتونية سنة (1374هـ/ 1956هـ) عند استقلال تونس.، فأضاف إلى فروع الزيتونية سبعة وعشرين معهداً علمياً كما عمل على إصلاح أساليب التدريس والكتب الدراسية، وما زال يعمل على إصلاح التربية والتعليم إلى أن توفي رحمه الله سنة (1973/1393م) [6].

2 . السيرة العلمية:

نشأ المؤلف كما ذكرنا نشأة علمية في رحاب جامعة الزيتونة على يد عدد كبير من الأساتذة الأجلاء التي هذبت شخصيته وأثرت في مجرى حياته وفي تفكيره وأولهم جده لأمه الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب

---

[1] محمد الحبيب ابن الخوجه، **جواهر الإسلام**، السنة العاشرة، العدد: 4، 1978م، 12.

[2] بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 39.

[3] محمد الخضر حسين، **تونس وجامع الزيتونة**، 113.

[4] الفاضل ابن عاشور، **الحركة الفكرية والأدبية بتونس** (تونس: 1983م)، 170.

[5] بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 58.

[6] الزركلي، **الأعلام**، 174/6، بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 68.

بو عتور الذي نال إعجاب الوزراء والأمراء في زمانه فعين وزيراً للمال، ثم مستشاراً سنة (1290هـ/1873م)، ثم تولى الوزارة الكبرى بعد مصطفى إبن إسماعيل واستمر في هذا المنصب إلى وفاته سنة (1325هـ/ 1907م)، وقد وفر هذا الجد لحفيده محمد الطاهر العيشة الرغيدة وفتح له المكتبات ووفر له الكتب النادرة وكان له أكبر الأثر في توجهاته العلمية والأدبية والفكرية[1]، ومن شيوخ المؤلف وأساتذته عمر إبن قاسم المعروف بإبن الشيخ المدرس بجامع الزيتونة، وقد التقى به الشيخ محمد عبده في زيارته لتونس (1300هـ/1883م) وأعجب به[2]، وقد تلقى الشيخ إبن عاشور على يده علم الكلام لاسيما شرح المواقف، وثالث شيوخه سالم بو حاجب المدرس والعضو في مجلس الأعيان التونسي سنة 1861م، وكان مدرساً محنكاً وخطيباً مفوهاً، يدعو إلى الإصلاح ويمتاز بعمق التفكير وسعته، وقد أثر في مؤلفنا محمد الطاهر أعظم تأثير[3] .

وكانت هناك روافد أخرى أثرت في الشيخ وفي تفكيره غير شيوخه منها تأثره بشيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية محمد عبده خصوصاً عند زيارته لتونس سنة 1903م، وبتلميذه رشيد رضا، وبدعواتهم الإصلاحية، والتقى الشيخ إبن عاشور مع نخبة من التونسيين بمحمد عبده وسمع محاضراته وسماه محمد عبده سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية، كما توطدت علاقة الشيخ إبن عاشور برشيد رضا المفتي والمدرس بالجامع الأزهر[4].

ودخل إبن عاشور في معارك فكرية مع بعض المفكرين على صفحات المجلات مثل مجلة المنار وغيرها كرده على المفكر علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ومناقشته لما في الكتاب وتوجيه نقد

---

[1] محمد الحبيب ابن الخوجه، **جواهر الإسلام**، السنة العاشرة، العدد: 4، 1978م، 12.

[2] محمد الخضر حسين، **تونس وجامع الزيتونة**، 113.

[3] محمد الطاهر ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1957م)، 43.

[4] المنصف الشنوفي، **مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تونس**(تونس: حوليات الجامعة التونسية، العدد: 3، سنة 1966م)، 74.

علمي محكم له[1]، وهذه الردود والمناقشات جعلته محط أنظار علماء عصره مثل الأستاذ محمد الخضر حسين الذي تحدث عن علاقته بالشيخ إبن عاشور قائلاً: "انعقدت بيني وبينه سنة 1317 هـ صداقة بلغت في صفاتها ومتانتها التي ليس بعدها غاية وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيراً، وأن يكون كل منا يعرف من سريرة صاحبه ما يعرف من سريرته فكنت أرى لسان لهجة الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيء وهمة طماحة إلى المعالي وجدا في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه"[2]، ومن بديع الأوصاف التي ذكروها فيه ما قاله الدكتور محمد الحبيب إبن خوجه: " أذكر أنني طلبت منه ذات يوم من سنة 1963 بعد أن جلست إليه في زيارتي له بعد العصر عن وجه اعراب آية خفي علي فإذا الإمام رحمة الله عليه يفيض في بيان ذلك ويشرح الوجوه المختلفة فيستشهد بما أورد إبن هشام في المغني، وفي «التصريح»، وكأنه يقرأ في كتاب وكذلك كان شأنه في كل ما يسأل عنه من قضايا العلم اللغوي أو الشرعي. كان خزانة علم تتنقل يجد لديه كل طالب بغيته، أعانه على حصول ذلك وبلوغ المرتبة العالية العجيبة فيه اشتغاله المتواصل بالمراجعة والتدريس والتحقيق والتأليف، مع صحة ذهن وجودة طبع وقوة عارضة وطلاقة لسان والشيخ صبور على المحن فلم يشك من أحد رغم الحملات التي أثيرت ضده ولم أعثر في نقده العلمي على ما يمس الذوق أو يخدش الكرامة، عف اللسان كريم محب لأهل العلم ولطلبته ولمن كان أهلا للمحبة، وكان في مناقشاته العلمية لا يجرح أحدا ولا يحط من قدره فإذا لاحظ تهافتا في الفكر لمح إلى ذلك تلميحا ولم أجد في خصوماته الفكرية ما يمن شخصية أحد قط"[3].

---

[1] محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، **نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم**، (القاهرة: المطبعة السلفية، 1344هـ)، وعلي عبد الرازق هذا من علماء الأزهر.

[2] محمد الخضر حسين، **تونس وجامع الزيتونة**، 125.

3 محمد الحبيب ابن الخوجه، **جواهر الإسلام**، السنة العاشرة، العدد: 4، 1978م، 21.

لقد كان الشيخ حقاً كما قال أحدهم: "قدوة ومنارة علمية ومثالاً للتعمق في الفكر كما شهد بذلك تلامذته وأصدقاؤه"[1].

وللشيخ الطاهر إبن عاشور العديد من المؤلفات يأتي في طليعتها تفسيره "التحرير والتنوير" في عشرة مجلدات، وكتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية"، وكتب "أصول الإنشاء والخطابة"، واعتنى بتحقيق ديوان بشار بن برد، وله مقالات كثيرة نشرها في المجلات[2].

ثالثاً ـ معاني المدح والثناء لغةً واصطلاحاً:

1 ـ معنى المدح لغةً واصطلاحاً:

أ ـ اتفق اللغويون على أن المدح يعود إلى الجذر الثلاثي (م د ح) ومعناه حسن الثناء، كما جاء في معاجم اللغة مثل العين والصحاح[3]، والمدح في اللسان هو نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، "يُقَالُ: مَدَحْتُه مِدْحَةً وَاحِدَةً ومَدَحَه يَمْدَحُه مَدْحاً ومِدْحَةً، وَالصَّحِيحُ أَن المِدْحَ الْمَصْدَرُ، والمِدْحَةَ الِاسْمُ، وَالْجَمْعُ مِدَحٌ، وَهُوَ المِدِيحُ وَالْجَمْعُ المدائحُ والأَماديح"[4]. وقال المرتضى الزبيدي: "قَالَ أَئمَّة الاشتقاقِ وفقهاءُ اللُّغة: المِدْح بمعنَى الوَصْف بالجميلِ، يقابلُه الذّمُّ وبِمَعْنى عَدِّ المآثر، ويقابلُه الهَجْو"[5].

ونظر بعض اللغويين والبلاغيين إلى اللفظ في معناه المجازي وهو الاتساع، لذلك رَأَوا أن المدح أعم من بقية معانيه المرادفة كالحمد والتقريظ، قَالَ الْخَطِيب التِّبريزيّ: "الْمَدْح من قَوْلهم انْمَدَحَتِ الأَرضُ إِذا

---

[1] بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 65.

[2] الزركلي، **الأعلام**، 174/6، وينظر مفصلاً حول مؤلفاته: بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم**، 68 وما بعد.

[3] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت.ط)، 188/3، إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تح: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987م)، 403/1.

[4] محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، 589/2.

[5] محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني المعروف بمرتضى الزبيدي، **تاج العروس** من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، (الكويت: دار الهداية، د.ت.ط)، 111/7.

اتَّسَعَت"[1]. وقال العسكري: "الْفرق بَين الْمَدْح والتقريظ: أَن الْمَدْح يكون للحي وَالْمَيِّت، والتقريط لَا يكون إِلَّا للحي"[2]، وقال في موضع آخر: "وأما الفرق بين الحمد والمدح فمن وجوه: منها:

ـ أن المدح للحي ولغير الحي كاللؤلؤ واليواقيت الثمينة.

ـ والحمد للحي فقط.

ـ ومنها: أن المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده، والحمد إنما يكون بعد الإحسان.

ـ ومنها: أن المدح قد يكون منهيًا عنه. قال – صلى الله عليه وآله – " احثوا التراب على وجوه المداحين".

ـ والحمد مأمور به مطلقًا.

ـ ومنها: أن المدح عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره، وبغير اختياره.

ـ والحمد قول دال على أنه مختص بفضيلة من الفضائل معينة وهي فضيلة الإنعام إليك وإلى غيرك، ولابد أن يكون على جهة التفضيل لا على التهكم والاستهزاء"[3]. الفروق 202/1.

ب ـ والمدح اصطلاحاً:

" هو الثناء باللسان على الجميل مطلقاً سواء كان من الفواضل أو من الفضائل، وسواء كان اختيارياً أو غير اختياري"[4].

---

[1] أحمد بن محمد بن علي الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.ط)، 566/2.

[2] الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، تح: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ت.ط)، 51/1.

[3] أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، 202/1.

[4] أيوب بن موسى الحسيني القريمي أبو البقاء الكفوي، الكليات/**معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د...ط)، 857/1.

أو بمعنى آخر "ذكر مناقب شخص أو هيئة اجتماعية أو مزايا عمل من الأعمال في خطاب علني نثراً أو شعراً"[1].

ج ـ والمديح غرض من أغراض الشعر[2]، وهو أيضاً: "خطبة أو حديث أو كتابة تطري إنساناً أو إنجازاً وتهيل الثناء بغير حساب"[3]. والمدح عند الكفوي "بِمَعْنى عد المآثر والمناقب، يُقَابله الهجو بِمَعْنى عد المثالب، والمدح بِالْوَصْفِ الْجَمِيل يُقَابله الذَّم"[4]. وبناء على هذه العلاقة بين المدح/الذم/الهجو يرى أحد الباحثين أن المديح له ثلاثة أركان (المادح والممدوح والأمر الممتدح)[5]، فالمادح يثني بلسانه على ممدوح تعجبه خصاله بمادة هي المديح تنفي عنه العيوب والذم.

2 ـ معنى الثناء لغةً واصطلاحاً:

أ ـ معنى الثناء لغةً: يعود لفظ الثناء في معاجم اللغة إلى الجذر الثلاثي (ت ن ي)، جاء في العين "الثناء تعمدك لشيء تثني عليه بحسن أو قبيح"[6]، وفي جمهرة اللغة "والثَّناء من قَوْلهم: أثنيتُ عَلَيْهِ إثناءً حسنًا، وَالِاسْم الثَّناء، وَلَا يكون إلاّ فِي الْخَيْر وربّما استُعمل فِي الشرّ"[7] و قال أبو منصور الأزهري: في التعليق على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[8] " وَيجوز أَن يكون وَالله أعلم من المثاني: أَي مِمَّا أُثْنِي بِهِ على الله، لِأَن فِيهَا حَمْد الله وتوحيده وَذكر مَا لَه يَوْم الدِّين والْمَعْنى: وَلَقَد آتيناك سبع آيَات من جُملة الْآيَات الَّتِي يُثْنَى بهَا على الله، وآتيناك الْقُرْآن الْعَظِيم"[9].

---

[1] مجدي وهبة وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ت.ط)، 343.

[2] محمد التونجي، **المعجم المفصل في الأدب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1999م)، 775/1.

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، 317.

[4] الكفوي، الكليات،

[5] معن توفيق دحام الحيالي، **المدح والذم في القرآن الكريم**/دراسة موضوعية، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.ط)، 12 ـ 13.

[6] الفراهيدي، العين، 244/8.

[7] محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تح: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987م)، 1036/2.

[8] الحجر، 87/15.

[9] محمد بن أحمد أبو منصور الأزهري، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م)، 100/15.

أما إبن سيده فقد تعرض للفرق بين الثناء ومقلوبه النثا مع التعريف بكل منهما فقال: "والثَّناءُ ما تَصِفُ به الإنْسانَ من مَدْحٍ أو ذَمٍّ وخَصَّ بَعْضُهم به المدْحَ وقد أَثْنَيْتَ عليه؛ وقَوْلُ أَبِي المثَلَّمِ الهُذَلِيّ

(يا صَخْرُ إِن كُنْتَ تُثْنِي أَنَّ سَيْفَكَ مَشْقُوقُ ... الخَشِيبَةِ لا نابٍ ولا عَصِلُ)

مَعْناهُ تَمْتَدِحُ وتَفْتَخِرُ فحَذَف، والنَّثَا: ما أَخْبَرْتَ به عن الرَّجُلِ من حَسَنٍ أو قَبِيحٍ"[1].

وذكر اللسان بعض الجوانب الحسية والمجازية في الكلمة فقال: "سُمِّيَتْ آيَاتُ الْحَمْدِ مَثَانِي، وَاحِدَتُهَا مَثْنَاة، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، لأَنها تُثَنَّى مَعَ كُلِّ سُورَةٍ، وثِنَاء الدَّارِ: فِناؤها"[2].

وقال البَعلي صاحب المطلع على ألفاظ المقنع: في معنى "قوله:" "لَا نُحْصي ثَنَاءً عَلَيْكَ" أي: لا نطيقه ولا نبلغه ولا تنتهي غايته.

و"قوله:" "أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك" اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، وردُّ ذلك إلى المحيط علمه بكل شيء جملةً وتفصيلاً، فكما أنه تعالى لا نهاية لسلطانه وعظمته فكذلك لا نهاية للثناء عليه، لأنه تابع للمثني عليه"[3].

ب ـ والثناء اصطلاحاً: "ما يذكر عن محامد الناس فيثنى حالاً فحالاً"[4]. وأضاف صاحب كشاف اصطلاحات الفنون: "الثناء بالمدّ هو ذكر ما يشعر بالتعظيم، وقد يطلق على الإتيان بما يشعر بالتعظيم،

---

[1] علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تح: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، 199/10.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، 124/14.

[3] محمد بن أبي الفتح شمس الدين البعلي، **المطلع على ألفاظ المقنع**، تح: محمود الأرناؤوط وياسين الخطيب، (الرياض: مكتبة السوادي، ط1، 2003م)، 120/1.

[4] عبد الرؤوف بن تاج الدين بن علي الحدادي المناوي، **التوقيف على مهمات التعاريف**، (القاهرة: عالم الكتب ط1، 1990م)، 117/1.

فقيل إنه حقيقة فيهما، وقيل في الأول فقط وأما في الثاني فمجاز مشهور كذا ذكر عبد العلي البرجندي، والمعنى الثاني أعم لاختصاص الأول باللسان بخلاف الثاني"[1].

ووافقه الأحمد نكري في دستور العلماء فقال: "وَقيل الثَّنَاء فعل يُشْعِر بتعظيم شَيْء"[2].

وقد يظن الظانُّ أن المدح والثناء والحمد وغيرها من الألفاظ المرادفة لها معنى واحد، ولكن عند تدقيق النظر يجد أن بينها فوارق دلالية دقيقة، ولعل أجملَ ما قيل في تلخيص هذه الفروق قول إبن القيم: "فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه"[3].

وقال في موضع آخر: "وقد جاء في السُّنَّة ما هو أخص من الحمد وهو الثناء، الذي هو تكرار المحامد كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لأهل قباء: "ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به"[4]، "فإذا كان قد أثنى عليهم والثناء حمد متكرر فما يمنع حمده لمن شاء من عباده"[5].

ونستنتج من كل ما سبق: أن المدح هو وصف عام بالجميل من غير ارتباط بحب أو إرادة أو رضىً، بينما الثناء هو مدح مكرر ومعه فعل يشعر بالتعظيم.

---

[1] محمد بن علي بن محمد حامد التهانوي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تح: علي دحروج، ترجمة: عبد الله الخالدي، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م)، 541/1.

[2] عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، **دستور العلماء =جامع العلوم في اصطلاحات الفنون**، ترجمة : حسن هاني فحص، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، 259/1.

[3] محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، **بدائع الفوائد**، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.ط)، 93/2.

[4] أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مع تضمينات: الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم، (تح: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت :دار الكتب العلمية ط: 1، 1990م)، 299/1، رقم 672 قال الحاكم : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»

[5] ابن قيم الجوزية، **بدائع الفوائد**، 94/2.

الفصل الأول: منهج الإمام القرطبي في عرض مفهومي المدح والثناء في تفسيره الجامع لأحكام القرآن

لابدَّ من الإشارة أولاً إلى تنوع مناهج المفسرين في مصنفاتهم، بين مطوَّلٍ يبلغ عدة مجلدات، وآخر مختصرٍ في مجلد أو رسالة نافعة، هذا مع اختلاف مدارسهم بين مفسِّرٍ بما أُثِرَ عن رسول الله وصحابته والتابعين، أو مفسِّرٍ بالرأي بما وافق كلام العرب.

وقد وقف كثير من الباحثين المعاصرين على تلك المناهج، فحللوا ما فيها من غث أو سمين، وألفوا في طرائقهم ومناهجهم الكتب، ولعل أنفعها كتاب "التفسير والمفسرون" للدكتور محمد حسين الذهبي، تجدر الإشارة إلى أن منهج القرطبي نال ثناء كبيراً ممن درسوا مناهج المفسرين، لمكانته العلمية أولاً وسعة باعه في علوم القرآن والفقه والأصول ولغات العرب نحوها وصرفها، وكذلك لما في تفسيره كما قال إبن فرحون في معرض ثنائه على القرطبي وكتابه: (من أجل التفاسير وأكثرها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ[1]).

لذلك سوف نقف في هذا الفصل لبيان منهج القرطبي في تناوله لمجموعة من آيات المدح والثناء لتعذر الوقوف عليها كلها في دراسة واحدة.

[1] ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 309/2.

المبحث الأول: المدح والثناء على الله وملائكته ورسله وكتبه:

المطلب الأول: المدح والثناء على الله وملائكته:

أولًا: المدح والثناء على الله:

لا يمكن المرور على آية في القرآن العظيم، دون ملاحظة القارئ ثناء الله تعالى على نفسه سبحانه بصفات مثل (الواحد الأحد، الفرد الصمد، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم العليم، الخبير القدير، السميع البصير، الجبار المنتقم) تتردد في الآيات وتتكرر بأساليب بليغة مدهشة، وقد وقف علماء التفسير عند هذه الآيات وأطالوا النظر في معانيها، واستنبطوا ما فتح الله عليهم، ومنهم فخر الدين الرازي والإمام القرطبي، ومن تلك الصفات المدح والثناء بصفة الحي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1].

مهد القرطبي للآية بذكر فضائلها العظيمة، وما ورد فيها من آثار، ثم تعرض لصفتي (الحي القيوم) فقال: و"الحي" أسم من أسمائه الحسنى يسمى به، ويقال: إنه أسم الله تعالى الأعظم. ويقال: إن عيسى إبن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء: ياحي يا قيوم. ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عن أسم الله الأعظم فقال لهم: أيا هيا شرا هيا، يعني يا حي يا قيوم. ويقال: هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به.

[1] البقرة، 255/2 ؛: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ط: 3 - 1420 هـ) 509/15.

أما "(القيوم) من قام، أي القائم بتدبير ما خلق، قاله قتادة[1]. وقال الحسن[2]: معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها، من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شيء منها. وقال إبن عباس: معناه الذي لا يحول ولا يزول"[3].

وتعرض القرطبي للحالة الصرفية في كلمة (القيوم) يقول: "وأصل قيوم (قيووم) اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، ولا يكون قيوم فعولًا، لأنه من الواو فكان يكون قيووما"[4].

ومن الصفات التي أثنى الله تعالى بها على نفسه صفة الغني، كما في قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[5] .

يسوق القرطبي معنى الآية مجملاً، ثم يعلل الغاية من تعريف كلمة (الفقراء) يقول: "قوله تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم، الزمخشري[6]:" فإن قلت لمَ عرَّف

---

[1] قتادة بن دعامة ابن عمرو بن ربيعة بن الحارث السدوسي البصري التابعي أبو الخطاب. الطيب بن عبد الله الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: عني به: خالد زواري وبوجمعة مكي، (جدة: دار المنهاج: ط1، 2008م)، 51/2 ؛ عبد الله بن محمد البغوي: **معجم الصحابة**: تح: محمد الأمين الجكني، (الكويت: دار البيان، ط1، 200م)، 67/5.

[2] الحسن بن أبي الحسن يسار البصري التابعي أبو سعيد الأنصاري بالولاء، توفي في سنة 110هـ. الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: 33/2- 34. و ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 69/2. و محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تح: مجموعة من المحققين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م)، 563/4.

[3] محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية ط2، 1964م)، 271/3 ؛ الرازي، **مفاتيح الغيب**، 443/18 ؛ تفسير الماوردي ، **النكت والعيون**، 323/1.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 272/3 .

[5] فاطر، 15/35

6 محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزّمخشري، جار الله، أبو القاسم (ت538هـ)، صاحب (الكشاف في تفسير القرآن العزيز)، ومن أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ينظر ترجمته في: ابن خلكان، شمس الدّين أحمد بن محمّد (ت681هـ)، **وفيات الأعيان**، 5 /168. 169. 170. 171.

الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر".

وينبه القرطبي إلى فن بلاغي في الآية هو الطباق الحاصل بين (الفقراء/ والغني)، مع ذكر الفائدة بزيادة صفة الحميد، يقول: " فإن قلت: قد قوبل" الفقراء" بالغني" فما فائدة" الحميد"؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم، وليس كل غني نافعًا بغناه إلا إذا كان الغني جوادًا منعمًا، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد– ذكر" الحميد" ليدل به على أنه الغنيُّ النافعُ بغناه خلقَه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه"[1].

وكرر سبحانه وتعالى أنه الرحيم بعباده في مواضع عديدة من كتابه العزيز، للإشارة إلى صفته سبحانه وهي الرحمة، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

يذكر القرطبي هنا الغاية من قوله في الآية الكريمة: (كتب على نفسه الرحمة) مستشهداً بحديث نبوي يفصل إجمال الآية، يقول: "ولكنه" كتب على نفسه الرحمة" أي وعد بها فضلًا منه وكرما فلذلك أمهل وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده، وارتفاع الوسائط دونه، ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 337/14.
[2] الأنعام، 12/6

الإنابة والتوبة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي"[1].

ويلاحظ القارئ أن الله تعالى يمدح نفسه بأنه الحق، ويختم فواصل الآيات كثيراً بصفة أخرى هي القدرة كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

يسير القرطبي على عقيدة السلف في منهجهم في تأويل المتشابه من الصفات، نافياً عن الله تعالى شبهات المضلين من أصحاب العقائد والفرق الفاسدة، فيبين أن الله مع كونه هو الحق إلا أنه الحق الحقيقي أي: أنه واجب الوجود[3]، أي: وجوده ثابت أصلي لا يتغير، ووجوب وجوده من ذاته لذاته أي: لم يكتسبه من شيء آخر، يقول: "والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده، ولهذا قال في آخر السورة ﴿أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[4]. والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى، وقيل: ذو الحق على عباده، وقيل: الحق بمعنى في أفعاله" [5].

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 395/6؛ والحديث أخرجه في صحيحه. مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.ط)، 2018/4، رقم الحديث: 2751، باب في سعة رحمة الله تعالى.

[2] الحج، 6/22

3 ينظر حول هذه القضية: **مجموعة من المؤلفين**، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، 667، و محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، تح: حسين بن عكاشة بن رمضان، (الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم، دار ابن حزم، ط1، 2020م)، 820/2.

[4] الحج،22/ 62

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 14/12 ـ 15.

وفي كثير من السور يأتي الثناء عليه سبحانه مقترناً بصفتي الحكيم والخبير، يقول الله عز وجل وتعالى في بداية سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1].

يقف القرطبي على وجوه الإعراب في هذه الآية، يقول: " (الذي) في موضع خفض على النعت أو البدل، ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ، و(أن يكون) في موضع نصب بمعنى أعني، وحكى سيبويه" الحمد لله أهل الحمد" بالرفع والنصب والخفض، والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله، إذ النعم كلها منه"[2].

ومن الأمثلة الواردة على هاتين الصفتين في سور أخرى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[3].

يتوقف القرطبي عند صفة الله تعالى (القاهر) موضحاً الفرق الدلالي بين (القهر والقدرة)، يقول: "وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد، (وهو الحكيم) في أمره (الخبير) بأعمال عباده، أي: من اتصف بهذه الصفات يجب ألا يشرك به"[4].

ونستنج مما سبق: أن الله تعالى أثنى على نفسه في معرض بيان قدرته وعظمته، وفي بيان سعة رحمته، وأن القرطبي حاول تجلية هذه الصفات نافياً عنها شوائب ما قالته الفرق الضالة.

ثانيًا: المدح والثناء على الملائكة:

---

[1] سبأ، 1/34

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 259/14.

[3] الأنعام، 18/6.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 399/6.

أثنى الله سبحانه وتعالى على ملائكته الكرام في كتابه العزيز، يتضح ذلك بما ورد في آيات كثيرة مقترنة بذكرهم مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

يرى القرطبي أن الملائكة خَلْقٌ من خلق الله، وجند من جنده، يأتمرون بأمره، وينتهون عما نهاهم عنه، ويرى أيضاً أن طاعتهم لله سبحانه غريزة مجبولة مركبة في أصل خلقهم، يقول في تفسير الآية السابقة مبيناً الأصل اللغوي لكلمة (حافات) إفراداً وجمعاً "قوله تعالى:" وترى الملائكة" يا محمد" حافين" أي محدقين" من حول العرش" في ذلك اليوم" يسبحون بحمد ربهم" متلذذين بذلك لا متعبدين به أي يصلون حول العرش شكرا لربهم، والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه، قال الأخفش[2]: وأحدهم حاف، وقال الفراء[3]: لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين[4]. وقيل: إن قول" الحمد لله رب العالمين" من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه"[5].

ويربط القرطبي بين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[6] وما سبق من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا

---

[1] الزمر، 75/39

[2] أبو الحسن علي بن سليمان البغدادي النحوي، المعروف بالأخفش الصغير، توفي سنة 315. الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: 40/3. أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي (ت: 379هـ): **طبقات النحويين واللغويين**، تح: محمد أبو فضل إبراهيم، (مصر: دار المعارف، ط2،) 115/1.

[3] يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور المعروف بالفراء، الأسلمي الكوفي أبو زكريا، توفي سنة 207 في طريق مكة، وعمره ثلاث وستون سنة. ابن خلكان: **وفيات الأعيان** : 181/6. و الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**. 391/2.

[4] محمد بن أحمد الأزهري أبو منصور الهروي، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي: ط1، 2001م)، 5/4.

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 287/15.

[6] البقرة، 34/2

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فيبين أن إسراع الملائكة في الامتثال لأمر الله تعالى والسجود لآدم هو أمر أزلي قديم، وأن خطابه لهم لا للمشورة، يقول: "قول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وهكذا الباب كله في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته، وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري[2]، وقال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم، فقال عز وجل:" اسجدوا لآدم".

ثم يستفيض القرطبي في تبيان الأصل اللغوي لكلمة (الملائكة)، محتجاً لذلك بكلام العرب يقول: الملائكة واحدها ملك. قال إبن كيسان[3] وغيره: وزن ملك فعل من الملك. وقال أبو عبيدة[4]، هو مفعل من لأك إذا أرسل والألوكة والمألكة والمألكة[5]: الرسالة، قال لبيد[6]:

وغلام أرسلته أمه ... بأُلوكٍ فبذلنا ما سألْ

---

[1] البقرة، 30/2

[2] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، مولده بالبصرة ووفاته سنة 324هـ . ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 284/3. و الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 87/15.

[3] محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن ابن كيسان: عالم بالعربية من أهل بغداد ووفاته سنة 299هـ. السيوطي، طبقات النحويين واللغات، 18/1. الزركلي **الأعلام**، 308/5.

[4] أبو عبيدة معمر بن المثنى، التميمي البصري النحوي العلامة. وكانت ولادته في رجب سنة عشر ومائة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري. قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف : قيل: توفي بالبصرة في خلافة المأمون سنة 213 . ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 235/5 .

[5] محمد بن يعقوب الفيروزآيادي أبو طاهر، **القاموس المحيط**، تح: نعيم العرقسوسي، (بيروت: الرسالة، ط8، 2005م)، 932.

[6] لبيد بن ربيعة العامري، شرح **الديوان**، تح: إحسان عباس، (الكويت: التراث العربي، 1962م)، 178.

ويقال: ألكني أي أرسلني، فأصله على هذا مألك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا: ملأك، ثم سهلوه فقالوا ملك. وقيل: أصله ملأك من ملك يملك، نحو شمأل من شمل، فالهمزة زائدة عن إبن كيسان أيضاً"[1].

وعلى الرغم من رأيه السابق، لا ينكر القرطبي أن الملائكة من أشرف خلق الله وأعلاهم منزلة، يتبدى ذلك في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]

يقول: "والملائكة: يعني الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها، كقوله:" ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾[3]، "وقيل: لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا..." [4].

إذن: نجد أن للقرطبي رأياً خاصاً حول الملائكة يتضح في تعليقه على آيات المدح والثناء التي جاءت فيهم، وهي أنهم خَلْقٌ من خلق الله، وأن خضوعهم التام لله سبحانه ذكراً وتسبيحاً وتعظيماً وتقديساً مركَّبٌ في أصل خلقتهم، مع عدم إنكاره أنهم من أشرف خلقه وأعلاهم منزلة.

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 263/1. و محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، 394/10.

[2] النحل، 49/16.

[3] الرحمن، 68/55.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 113/10.

المطلب الثاني: المدح والثناء على الرسل وكتبهم، والعباد الصالحين:

أولًا: المدح والثناء على الرسل وكتبهم:

أثنى الله تعالى على رسله الكرام تنبيهاً على شرف قدرهم، لما كابدوا وصابروا في سبيل دعوة قومهم إلى عبادة الله الواحد الأحد والنهي عن عبادة الأصنام والأوثان، وقد مدح الله تعالى نبيه القدوة محمداً في كتابه العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وتكلم القرطبي عن هذه الآية كلاماً رائعاً، فقد رأى أن في قوله تعالى (من أنفسكم) مدحاً للنبي الكريم وتأصيلاً لنسبه الشريف، ويسوق بعض الآثار التي تعضد هذا الفهم، مع اهتمامه بتوجيه المعنى على قراءة أخرى، يقول: "قوله تعالى:" من أنفسكم" يقتضي مدحاً لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها، وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[2].

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني من نكاحٍ ولست من سفاحٍ) [3].

---

[1] التوبة، 128/9

[2] مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، 1782/4، رقم الحديث: 2276، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم. و محمد بن عيسى الترمذي، **السنن**، تح: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م)، 6/6، رقم الحديث: 3606، باب في فضل النبي الكريم.

[3] الحديث رواه الصنعاني في المصنف. عبد الرزاق بن همام الصنعاني، **المصنف**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي، 1403هـ)، 303/7، رقم الحديث: 1327 ؛ ورواه البيهقي في سننه بلفظ اخر" جْتُ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ " أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **السنن الكبرى**، تح: محمد عبد القادر عطا، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ط: 3، هـ – 2003 م)، 7/ 308 ، برقم 14077؛ والحديث حسنه الالباني. أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، (المكتب الإسلامي)، 613/1، برقم 3225.

معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ولم يكن فيه زنى.

وقرأ عبد الله بن قسيط المكي من" أنفسكم" بفتح الفاء من النفاسة، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن فاطمة رضي الله عنها أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم من قولك: شيء نفيس إذا كان مرغوبًا فيه، وقيل: من أنفسكم أي أكثر كم طاعة".

ثم يقول القرطبي: "وقال الحسين بن الفضل[1]: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: ﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾ وقال: ﴿إن الله بالناس لرؤف رحيم﴾[2]،[3].

وفي موضع آخر يمدح الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4]، فيقوم القرطبي بنقل الأقوال في معنى (الخلق العظيم) عن الصحابة والتابعين وأهل العلم، فيقول: " قال ابن عباس ومجاهد[5]: على خلق، على دين عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه، وفي صحيح مسلم عن عائشة: "أن خلقه كان القرآن"[6].

---

[1] لعله الحسين بن الفضل البجلي المفسر المعمر من أهل الكوفة توفي سنة 282. الزركلي، **الأعلام**، 251/2.

[2] الحج، 65/22.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 302/18.

[4] القلم، 4/68

[5] أَبُو بكر المقرىء البغدادي أَحْمد بن مُوسَى بن الْعَبَّاس ين مُجَاهِد. ولد سنة خمسين ومائتين. له كتاب القراءات الْكَبِير، كتاب القراءات الصَّغِير، كتاب الياءات، كتاب الهاءات، كتاب قِرَاءَة أبي عَمْرو، قِرَاءَة ابْن كثير. توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة. الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: 80/3. خليل بن أيبك الصفدي: **الوافي بالوفيات**: (بيروت: مؤسسة الرسالة) 129/8.

[6] محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م)، 541/2، رقم الحديث: 3842، باب تفسير سورة ن والقلم.

وقال علي رضي الله عنه وعطية: هو أدب القرآن، وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه[1].

ولا يكتفي القرطبي بالنقل، بل يشير إلى أصح الأقوال في معنى الآية، يقول: "قلتُ: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال، وسئلت أيضاً عن خلقه عليه السلام، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك قال الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم)، ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر"[2].

وينبه القرطبي إلى ما في الآية من إيماء إلى تأسي المؤمنين بأخلاق النبي عليه الصلاة يقول: "وقيل: سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله عليه السلام: (إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق)[3]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)" [4،5].

وأثنى الله تعالى على بقية أنبيائه فمدح نوحاً بالعبودية، وإبراهيم بالوفاء، وإسماعيل بأنه صادق الوعد، كما مدح عيسى في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 227/18.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 228/18.

[3] أحمد بن حنبل الشيباني، **المسند**، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م)، 513/14، رقم الحديث 513، حكم المحقق: صحيح.

[4] الترمذي، **السنن**، 423/3، رقم الحديث: 1987، حكم الترمذي: حسن صحيح.

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 226/18.

كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

يرشد القرطبي هنا إلى المعاني الخلقية السامية التي وصف الله بها نبيه عيسى في الآية السابقة، يقول: "(وجعلني مباركا) أي: ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلما له التستري[2]، وجعلني آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف. (وبرًا بوالدتي) قال إبن عباس: لما قال"وبرا بوالدتي" ولم يقل بوالدي علم أنه شيء من جهة الله تعالى، (ولم يجعلني جبارا)، أي متعظما متكبرا يقتل ويضرب على الغضب. وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقاً قط. (شقيا): أي خائبا من الخير. إبن عباس: عاقًا. وقيل: عاصيا لربه وقيل: لم يجعلني تاركا لأمره فأشقى كما شقي إبليس لما ترك أمره"[3].

ومدح الله تعالى نبيه موسى بالاصطفاء كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[4].

يبين القرطبي في سياق التفسير ما في الآية من أساليب بلاغية، موجهاً القول في سبب الإفراد حيناً والجمع حيناً آخر، مع بيان القراءات الأخرى، يقول: "قوله تعالى: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) الاصطفاء: الاجتباء، أي فضلتك. ولم يقل على الخلق، لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة وأرسله وأرسل غيره. فالمراد" على الناس" المرسل إليهم. وقرأ" برسالتي" على الإفراد

---

[1] مريم، 30/19 – 31- 32- 33

[2] لعله سهل بن عبد الله بن يونس التستري: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم له كتاب تفسير القرآن ووفاته سنة 283. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 429/2.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 202/11.

[4] الأعراف، 144/7

نافع[1] وإبن كثير[2]. والباقون بالجمع. والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها. ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه، كما قال: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[3]، فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين، ووجد في قوله" الصوت" لما أراد به جنسًا واحدًا من الأصوات"[4].

وتكثر الآيات التي يمدح الله تعالى فيها نبيه موسى عليه السلام، وربما يعود السبب في ذلك إلى أنه بُعِثَ إلى بني إسرائيل، فكان له في مواجهته الأمة الاسرائيلية العاتية، المجبولة على الكبر والغرور والتجبر وقتل الأنبياء، مقام عظيم، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[5].

ويكتفي القرطبي هنا بتفسير معنى الآية على نحو موجز، دون أن يستطرد في ذلك، مع الإشارة إلى قراءة قرآنية أخرى في لفظة (مخلصاً)، يقول: "قوله تعالى: (واذكر في الكتاب موسى) أي واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى، (إنه كان مخلصا) في عبادته غير مرائي، وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام[6]، أي أخلصناه فجعلناه مختارا".

وقد أثنى الله تعالى على كتبه السماوية، لاسيما القرآن الكريم، وقد أفرد العلماء رسائل في أسمائه، ومنهم علامة اللغة المفسر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الذي عقد فصلاً في كتابه (بصائر ذوي التمييز) في

---

[1] نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم الشجعي، المقرئ المدني أحد القراء السبعة، وتوفي سنة 59هـ. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 68/5.

[2] أبو معبد الإمام المقرئ عبد الله بن كثير الكناني مولاهم مولى عمرو بن علقمة الكناني المكي القارئ الداري. أحد القراء السبعة، توفي سنة 120 وقيل: سنة 122. الهجراني: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: 60/2-61.

[3] لقمان، 19/31.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 280/7.

[5] مريم، 51/19

[6] الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي، **الحجة للقراء السبعة**، تح: بدر قهوجي وبشير جويجابي، (دمشق ـ بيروت: دار المأمون للتراث، ط3، 1993م)، 421/4.

إحصاء أسماء القرآن العظيم، كالمهيمن والنور والحق والذكر والشفاء والهدى والرحمة والمبشّر والبرهان والضياء والمبارك والتبيان والحكمة وغيرها[1]، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[2].

يبين القرطبي وجهين في سبب تسمية القرآن فرقاناً، موضحاً أن هذه الصفة قد تطلق على بقية الكتب السماوية فيقول: "و" الفرقان" القرآن، وقيل: إنه اسم لكل منزل، كما قال: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾[3].

وفي تسميته فرقاناً وجهان: أحدهما- لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، الثاني- لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام، حكاه النقاش[4،5].

ويثني الله تعالى على التوراة والإنجيل في سياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[6].

يهتم القرطبي هنا ببيان اشتقاق التوراة والإنجيل، وأصلهما في اللغات، محتجاً لذلك بأقوال أئمة اللغة والنحو، مرجحاً بين الأقوال المختلفة يقول: "والتوراة معناها الضياء والنور، مشتقة من ورى الزند ووري لغتان إذا خرجت ناره، وأصلها تورية على وزن تفعلة، التاء زائدة وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفاً.

---

[1] محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تح: محمد علي النجار، (القاهرة: مجلس إحياء التراث، 1973م)، 88/1.

[2] الفرقان، 1/25.

[3] الأنبياء، 48/21.

[4] أبو بكر النقاش محمد بن الحسن بن زياد الموصلي الأصل البغدادي المولد والنشأة العالم بالقرآن والتفسير له تفسير " شفاء الصدور، وغيره من الكتب توفي سنة (351). ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 298/4.

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 1/13.

[6] آل عمران، 3/3

وقال الخليل[1]: أصلها فوعلة، فالأصل ووربة، قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في توجل، والأصل ووجل فوعل من وجلت، وقلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها، وبناء فوعلة أكثر من تفعلة.

وقيل: التوراة مأخوذة من التورية، وهي التعريض بالشيء والكتمان لغيره، فكأن أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح، هذا قول المؤرج[2].

والجمهور على القول الأول لقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين﴾[3] يعني التوراةَ[4].

والإنجيل: إفعيل من النجل وهو الأصل، ويجمع على أناجيل وتوراة على توار، فالإنجيل أصل لعلوم وحكم، ويقال: لعن الله ناجليه، يعني والديه، إذ كانا أصله، وقيل: هو من نجلت الشيء إذا استخرجته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، ومنه سمي الولد والنسل نجلا لخروجه، والنجل الماء الذي يخرج من النز، واستنجلت الأرض، وبها نجال إذا خرج منها الماء، فسمي الإنجيل به، لأن الله تعالى أخرج به دارسا من الحق عافيا، وقيل: هو من النجل في العين (بالتحريك) وهو سعتها، وطعنة نجلاء، فسمي الإنجيل بذلك، لأنه أصل أخرجه لهم ووسعه عليهم ونوراً وضياءً[5].

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي الإمام النحوي اللغوي. وهو الذي استنبط علم العروض، توفي سنة 170، وقيل: خ175 -وقيل: 160. الذهبي: **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**: 239/2 . و خليفة، حاجي: **سلم الوصول إلى طبقات الفحول**: 83/2.

[2] أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي العالم اللغوي أخذ العربية عن الفراهيدي وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج، ووفاته نحو 195هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 306/5.

[3] الأنبياء، 48/21

[4] ينظر حول التوراة وأصلها واشتقاقها: محمد بن محمد الحسيني المعروف بمرتضى الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 2001م)، 40 / 190.

[5] الأزهري، **تهذيب اللغة**، 56/11، مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، 458/3.

وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السريانية، وقيل: الإنجيل بالسريانية إنكليون حكاه الثعلبي[1،2].

ثانيًا: المدح والثناء على العباد الصالحين:

يصطفي الله تعالى طوائف من عباده الصالحين في كل زمان ومكان، فيمدحهم ويثني عليهم، لما لهم من فضل ومسارعة في الخيرات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثبات على الإيمان والوفاء بالوعد والصبر والصدق والأمانة والكرم لنتعلم منهم، ولعل أجمل المديح والثناء تجلى في قوله تعالى مادحاً الصحابة الكرام والرجال العظماء الذين وقفوا إلى جانب نبيه صلى الله عليه وسلم، يقول عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

يستعرض القرطبي ما في الآية الكريمة من مسائل، الأولى أن الآية في صحابة رسول الله وقد يدخل بها جميع المؤمنين، يقول: " وكون الصفات في جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأشبه، قال إبن عباس: أهل الحديبية أشداء على الكفار، أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته، وقيل: المراد ب "الذين معه"جميع المؤمنين"رحماء بينهم" أي يرحم بعضهم بعضا، وقيل: متعاطفون متوادون.

الثانية: التنبيه على ما في التهجد والسجود من أثر على الوجه والقلب، منبهاً على الآثار الصحيحة والفاسدة الواردة في هذا المعنى، يقول: " وفي سنن إبن ماجه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من

---

[1] أبو إسحاق، أحمد بن محمد ابن إبراهيم النيسابوري. كان أحد أوعية العلم، توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مائة. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: 453/13.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 6/4.

[3] الفتح، 48/ 29.

كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار) [1]، وقال إبن العربي: أبو بكر إبن العربي[2]: ودسه قوم في حديث النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة، وفيه: (فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار إبن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود)[3]، الثالثة: الاقتداء والتأسي بهم وبأخلاقهم وصفاتهم لنيل درجاتهم والمستفاد من "قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة"[4].

وقد تعددت المواضع التي أثنى الله تعالى فيها على عباده الصالحين من كتابه العزيز، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[5].

يرى القرطبي أن هذه المنزلة والمكانة العظيمة للمؤمنين في يوم القيامة، حيث لهم الأمان من الخوف والفزع الأكبر، والمقام العالي عند الله تعالى، بينما للكافرين الذل والهوان والخزي، يقول: "وقد روي في هذا الحديث أن المنادي ينادي يوم القيامة: "يا عبادي لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون"[6] فيرفع الخلائق رؤوسهم، يقولون: نحن عباد الله، ثم ينادي الثانية:" الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين" فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحدون رافعي رؤوسهم، ثم ينادي الثالثة:" الذين آمنوا وكانوا يتقون" فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى

---

[1] محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د...ط)، 422/1، رقم الحديث: 1333.

[2] محمد بن عبد الله الإشبيلي أبو بكر ابن العربي: من الحفاظ الأثبات، توفي سنة (453هـ)". الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 198/20؛ الزركلي، **الأعلام**، 230/6.

[3] محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح الجامع، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة مصورة السلطانية، ط1، 1422هـ)، 160/1، رقم الحديث: 806 باب فضل السجود.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 292/16.

[5] الزخرف، 68/43

[6] روي بعضه عند علي بن حسام الدين البرهانفوري، **كنز العمال**، تح: بكري حياني وصفوة السقا، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981م)، 375/14، رقم الحديث: 38993.

أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، لأنه أكرم الأكرمين، لا يخذل وليه ولا يسلمه عند الهلكة"[1].

ويمتدح الله تعالى عباده الذين أخلصوا بأن لهم الدرجات العلى والرزق الوفير يقول سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾[2]، يقول القرطبي: قوله تعالى: " أولئك لهم رزق معلوم" يعني المخلصين، أي لهم عطية معلومة لا تنقطع. قال قتادة: يعني الجنة، وقال غيره: يعني رزق الجنة، وقيل: هي الفواكه التي ذكر، قال مقاتل[3]: حين يشتهونه"[4].

ولعل أكثر من يستحق الثناء هم العلماء العاملون، لأنهم القدوة الحسنة، ما داموا يخلصون نياتهم ويرشدون الناس إلى طريق الحق، يقول تعالى في مدحهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[5].

ينص القرطبي على المقصود بالعلماء في الآية، فيرى أنهم العلماء العاملون الذين يخشون الله تعالى، محذراً ممن يرائي وينافق ويعلِّمُ لغير وجه الله تعالى، ويلتمس بالعلم الدنيا الدنية، يقول: "يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، وأسند الدارمي[6] أبو محمد عن مكحول[7] قال:

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 110/16.

[2] الصافات، 40/37-41

[3] مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي، أصله من بلخ ودخل بغداد وتوفي بالبصرة، كذبه أهل الحديث، توفي سنة 150هـ. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 201/7 . الزركلي، **الأعلام**: 281/7

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 77/15.

[5] فاطر، 28/35

[6] عبد الله بن عبد الرحمن التميمي السمرقندي الدارمي: الحافظ المحدث المفسر أبو محمد صاحب **السنن** المشهورة، سمع بالشام والحجاز والعراق وخراسان وتوفي سنة 255هـ. الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، 90/2.

[7] مكحول بن عبد الله الشامي: سادات التابعين بالشام، اختلف في وفاته فقيل: سنة ثلاث عشرة، وقيل ست عشرة، وقيل اثنتي عشرة. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 283/5.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية- إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضيه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير"[1] الخبر مرسل، قال الدارمي: إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل، ويتفقهون لغير العبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن، قلوبهم أمر من الصبر، فبي يغترون، وإياي يخادعون، فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران، أخرَّجه الترمذي"[2].

نتبين مما سبق إلى أن الآيات الكريمة أبرزت مدح الرسل وعباد الله الصالحين، والثناء عليهم، وذلك التماساً للقدوة الحسنة فيهم، واستلهاماً للهداية في أحوالهم وسيرهم، والتعرف على أقدارهم للسير على منوالهم، وتدبر شريف أحوالهم، كما أثنى الله تعالى على كتبه السماوية لأنها سُرُج الهدى ومنابر النور، فيها تفصيل الشريعة والأحكام، وعلم الحلال والحرام، ونلاحظ أن القرطبي كان ينقل أقوال أهل السلف، في سبيل تبيين المعاني، مرجحاً بين الآثار، مبيناً صحيحها من معلولها، منبهاً إلى القراءات الأخرى وأهميتها في توجيه المعنى.

المبحث الثاني: المدح والثناء على الأزمنة والأمكنة:

المطلب الأول: مدح الأزمنة:

نبه الله تعالى في كتابه الكريم إلى تفضيل بعض الأزمان على بعض، وبعض الشهور على بعض، لما فيها من تنزيل رحماته وبركاته، وإرشاداً لعباده في التماس الفضل، والتقرب إلى الله تعالى فيها بالطاعات، لكي ينالوا رضوانه، ويفوزوا بجنانه، ويمكن أن نقسم ما يدل على الزمان إلى قسمين:

---

[1] روي مرفوعاً بلفظ قريب عند الترمذي، **السنن**، 347/4، رقم الحديث: 2685، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 343/14.

القسم الأول: الآيات التي وردت في مدح الشهور:

مدح الله تعالى بعض الشهور في كتابه العزيز، ومنها الأشهر الحرم لاسيما شهر رمضان منها، مشيراً إلى أن السبب في ذلك إنزال القرآن فيه، لذلك فهو شهر يستحق كل التعظيم، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

يطيل القرطبي الوقوف عند هذه الآية، فيرى أن فيها (21) مسألة: منها ما يتعلق بتاريخ الصيام، يقول: " قال أهل التاريخ: أول من صام رمضان نوح عليه السلام لما خرج من السفينة، وقد تقدم قول مجاهد: كتب الله رمضان على كل أمة، ومعلوم أنه كان قبل نوح أمم، والله أعلم" ومنها ما يتعلق بمسألة الاسم (رمضان)، محتجاً بكلام العرب، يقول: "ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش، والرمضاء (ممدودة): شدة الحر، فرمضان- فيما ذكروا- وافق شدة الحر، فهو مأخوذ من الرمضاء.

قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضانات وإرمضاء، يقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمي بذلك[2].

ومنها ما يتعلق بالآثار المروية في فضل الشهر، يقول: روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين)[3].

---

[1] البقرة، 185/2

[2] الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، 1081/3.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، 758/2، رقم الحديث: 1079، باب فضل شهر رمضان.

وفي صحيح البستي عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كان رمضان فتحت له أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) [1]، ومنها ما يتعلق بأحكام الصيام، مبرزاً مذهبه الفقهي مع مقارنته ببقية المذاهب، يقول: فرض الله صيام شهر رمضان أي مدة هلاله، وبه سمي الشهر، كما جاء في الحديث: (فإن غمي عليكم الشهر) أي الهلال، واختلف مالك والشافعي هل يثبت هلال رمضان بشهادة واحد أو شاهدين، فقال مالك: لا يقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلال فلا يقبل فيها أقل من إثنين، أصله الشهادة على هلال شوال وذي الحجة، وقال الشافعي وأبو حنيفة: يقبل الواحد"[2].

القسم الثاني: الآيات التي وردت في مدح الأيام وأجزائها:

ذكر الله تعالى أسماء بعض الأيام في كتابه، وهما الجمعة والسبت، ولعل في ذلك تنبيهاً على منزلتهما عند أصحاب الديانات السماوية، أو إشارة إلى اقترانهما بحوادث مهمة، قال تعالى يذكر السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[3].

هنا يقص القرطبي الحادثة التي وقعت في هذا اليوم يقول: "(في السبت): معناه في يوم السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت، والأول قول الحسن، وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال، وروى أشهب عن مالك قال: "زعم إبن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطا ويضع فيه وهقة وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لا يبتلى، حتى

---

[1] محمد بن حبان البستي أبو حاتم، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تح: شعيب الأرناؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988م)، 220/8، رقم الحديث: 3434.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 290/2.

[3] البقرة، 2 /65.

كثر صيد الحوت ومشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده، فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهي واعتزلت".

ويقال: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأناً، فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة". ويوضح لنا القرطبي المعنى اللغوي للسبت، يقول: "والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع، فقيل: إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها، وقيل: هو مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدعة"[1].

ومدح الله يوم الجمعة وأثنى عليه في كتابه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وتستوقف الآية الكريمة الإمام القرطبي فيرى فيها (13) مسألة: منها ما يتعلق باللغات والقراءات الواردة في لفظ (الجمعة) يقول: قرأ عبد الله بن الزبير[3] والأعمش[4] وغيرهما (الجمعة) بإسكان الميم على التخفيف، وهما لغتان، وجمعهما جمع وجمعات[5].

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 439/1. و الأزهري، **تهذيب اللغة**، 268/12.

[2] الجمعة، 62 /9.

[3] عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أبو بكر، وأبو خبيب القرشي الأسدي المكي، أحد **الأعلام** ولد سنة اثنتين، وقيل: سنة إحدى. قتل في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 406/4-407.

[4] سليمان بن مهران الأعمش الكوفي الإمام التابعي الثقة وكان يقارن بالزهري بالحجاز، وكان عالماً زاهداً توفي سنة 148 وقيل 147هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 403/2.

[5] سلمة بن مسلم الصحاري، الإبانة في اللغة العربية، تح: مجموعة من المحققين، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 1999م)، 748/4،

قال القراء: يقال الجمعة (بسكون الميم) والجمعة (بضم الميم) والجمعة (بفتح الميم) فيكون صفة اليوم[1]، أي تجمع الناس، كما يقال: ضحكة للذي يضحك، ومنها في أصل هذا اليوم عند العرب في الجاهلية وسبب تسميته بالجمعة، وأول جمعة انعقدت في الإسلام يقول: "وعن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم)، وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها المخلوقات، وقيل: لتجتمع الجماعات فيها، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة، ولذلك أنهم قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه في كل سبعة أيام وهو السبت، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه- ونستذكر- أو كما قالوا- فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة (أبو أمامة رضي الله عنه) فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا، ومنها ما يتعلق بصلاة الجمعة، يقول: "وقال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ، قال إبن العربي: وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهي قول: من يوم الجمعة وذلك يفيده، لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة، فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام"[2].

وأقسم الله تعالى ببعض مخلوقاته تنبيهاً للمؤمنين على عظمتها، ومنها مدحه وثنائه على أوقات أقسم بها تعظيماً لها مثل الليل والفجر والليالي العشر في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[3].

---

[1] نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح: مجموعة من المحققين، (بيروت ـ دمشق، دار الفكر المعاصر، ط1، 1999م)، 1157/2

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 97/18.

[3] الفجر، 89 /1- 2- 3- 4

وهنا يوضح القرطبي المقصود بالفجر وسر القسم به، ومعنى اقترانه بالليالي العشر، حيث ينقل ما روي من آثار عن الصحابة والتابعين، يقول: "واختلف في الفجر، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظُلمة عن النهار من كل يوم، قاله علي وإبن الزبير وإبن عباس رضي الله عنهم، وعن إبن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله، وروى إبن جريج[1] عن عطاء عن إبن عباس قال: والفجر: يريد صبيحة يوم النحر، لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده، لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر، وهذا قول مجاهد، وقال عكرمة[2]: والفجر قال: انشقاق الفجر من يوم جمع، وعن محمد بن كعب القرظي[3]: والفجر آخر أيام العشر، إذا دفعت من جمع، وقال الضحاك[4]: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: وليال عشر أي ليال عشر من ذي الحجة. وكذا قال مجاهد والسدي[5]

---

[1] عبد الملك بن عبد العزيز القرشي بالولاء الأموي التابعي المشهور بابن جريج بضم الجيم وفتح الراء أبو الوليد وقيل أبو خالد، إمام الحجاز وفقيهها في عصره، ولادته بمكة ووفاته بها سنة 150. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 325/6.

[2] هو عكرمة القرشي أبو عبد الله البربري الأصل المدني الحافظ المفسر مولى ابن عباس، كان كثير الأسفار في طلب العلم ووفاته بالمدينة سنة (105هـ) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 15/ 20.

[3] محمد بن كعب بن سليم القرظي أبو حمزة، وقيل أبو عبد الله: التابعي الجليل، توفي سنة 108هـ . أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، 273/6.

4 الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا القاسم، صاحب التفسير، حدث عن: ابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعنه: عمر بن الرماح، ومقاتل، وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وضعفه يحي القطان، واختلفوا في سنة وفاته بين: (101هـ-110هـ)، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 598/4.

[5] هو مُحَمَّد بن مروان السدي، مولى عبد الرحمن بْن زيد بن الخطاب. قَال البُخارِيُّ عنه :لا يكتب حديثه البتة. المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال: 392/26.

والكلبي[1] في قوله: وليال عشر هو عشر ذي الحجة، وقال مسروق[2]: هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿وأتممناها بعشر﴾[3]، وهي أفضل أيام السنة"[4].

وكذلك أقسم الله تعالى بالعصر في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[5]، ويقف القرطبي عند هذه الآية، ويفسر سر هذا القسم: "أقسم الله به عز وجل، لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع" ثم يحتج بكلام العرب في تبيان وقت العصر، يقول: "وقيل: العصر: الليل والنهار".

ويربط القرطبي بين الآية السابقة وآية أخرى لما بينهما من المناسبة، وهي قوله تعالى: ﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾[6]، فيتعرض لسبب تخصيصها بالذكر والقراءات المتواترة والشاذة فيها يقول: " وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبل في عموم الصلوات تشريفاً لها، كقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾[7]، وقرأ أبو جعفر الواسطي[8] " والصلاة الوسطى" بالنصب على الإغراء،

---

[1] محمد بن السائب الكلبي أبو النضر: الإخباري النسابة المفسر، العالم بأيام العرب وأخبارها، ولد بالكوفة ونشأ بها وشهد وقعة دير الجماجم، وتوفي في الكوفة سنة 146 وله تفسير القرآن. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 309/4.

[2] مسروق بن الأجدع الهمداني: تابعي ثقة من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام بكر الصديق رضي الله عنه، وسكن الكوفة وتوفي بها سنة 63هـ. ابن حجر، الإصابة في أعلام الصحابة، 229/6.

[3] الأعراف، 142/7.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 38/20.

[5] العصر، 103 /1- 2

[6] البقرة، 2 /238

[7] الأحزاب، 7/33.

[8] عبد الله بن أحمد الواسطي أبو جعفر الضرير المقرئ توفي سنة (593هـ). محمد بن محمد بن يوسف المعروف بابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1351هـ)، 406/1.

أي والزموا الصلاة الوسطى. وقرأ قالون[1] عن نافع" الوصطى" بالصاد لمجاورة الطاء لها، لأنهما من حيز واحد، وهما لغتان كالصراط ونحوه"[2].

ثم يشير إلى اختلاف العلماء في تعيين وقت الصلاة الوسطى ذاهباً مع مذهب الجمهور بأنها صلاة العصر بعد عرض القرائن، يقول "واختلف الناس في تعيين الصلاة الوسطى على أقوال: الأول- أنها الظهر، لأنها وسط النهار على الصحيح من القولين الثاني- أنها العصر، لأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل، واختاره إبن العربي في قبسه، وإبن عطية[3] في تفسيره وقال: وعلى هذا القول الجمهور من الناس وبه أقول، وقال الثالث- إنها المغرب، قاله قبيصة بن أبي ذؤيب[4] في جماعة، والحجة لهم أنها متوسطة في عدد الركعات ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تقصر في السفر، وجيء بالرابع- صلاة العشاء الآخرة، لأنها بين صلاتين لا تقصران، وتجيء في وقت نوم ويستحب تأخيرها وذلك شاق فوقع التأكيد في المحافظة عليها، أما الخامس- إنها الصبح، لأن قبلها صلاتي ليل يجهر فيهما وبعدها صلاتي نهار يسر فيهما، ولأن وقتها يدخل والناس نيام، والقيام إليها شاق في زمن البرد لشدة البرد وفي زمن الصيف لقصر الليل، وممن قال إنها وسطى علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس"[5].

---

[1] قالون عيسى بن مينا، أبو موسى مقرئ المدينة، وتلميذ نافع. هو: الإمام، المجود، النحوي، كان شديد الصمم، فكان ينظر إلى شفتي القارئ ويرد. مات سنة عشرين ومائتين، عن نيف وثمانين سنة. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 326/10- 327

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 207/3.

[3] عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي: مفسر فقيه، توفي بلورقة 542هـ. خليل بن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، 2000م)، 40/18. والزركلي، **الأعلام**، 282/3.

[4] قبيصة بن ذؤيب أو أبي ذؤيب الخزاعي: من وجوه الفقهاء ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وتوفي بدمشق سنة (86هـ)، الزركلي، **الأعلام**، 189/5.

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 208/3.

وكذلك أنزل الله تعالى سورة كاملة هي (سورة القدر) في الثناء على هذه الليلة المباركة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

يوضح القرطبي أولاً هذا الأسلوب القرآني (وما أدراك) فيقول "قال القراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: وما أدراك فقد أدراه، وما كان من قوله: ﴿وما يدريك﴾[2] فلم يدره، وقاله سفيان[3]".

ثم يتكلم عن فضل هذه الليلة وسبب ثناء الله تعالى عليها، يقول: (ليلة القدر خير من ألف شهر) بين فضلها وعظمها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر والله أعلم، وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر"[4].

وبناءً على ما سبق نقول: إن تعظيم الله تعالى لأوقات مخصوصة بمدحها والثناء عليها، مثل شهر رمضان وليلة القدر ووقت الفجر والليالي العشر وصلاتي العصر والجمعة، لما فيها من فضل عظيم وشرف رفيع تنال فيها الخيرات وتتنزل فيها البركات، أو السبب أنها آية من آيات الله تعالى تدل على الخالق كما في

---

[1] القدر، 97 /1- 2- 3- 4- 5

[2] الأحزاب، 63/33.

[3] لعله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الكوفي المجتهد، مصنف كتاب الجامع. لقب بالثوري لأن نسبه ينتهي إلى ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة، طلب العلم وهو حدث باعتناء والده المحدث سعيد بن مسروق الثوري. ولد في سنة 97هـ، وتوفي في البصرة سنة 161هـ. علاء الدين مغلطاي بن قليج الحنفي(ت76هـ): إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط1، 2011، 374/3.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 231/20.

العصر بمعنى الزمان في تصرف أحواله، وقد نبه على ذلك القرطبي في الكلام عليها، مبيناً ما ورد من أقوال وأحكام فقهية بخصوصها.

المطلب الثاني: مدح الأمكنة والثناء عليها:

قيل "لله خواص: في الأزمنة والأمكنة والأشخاص"[1]، وكما أثنى الله تعالى على أوقات مخصوصة كذلك أثنى على أماكن وبقاع في الأرض وفي السماء، لاسيما الجنة تشويقاً إليها وترغيباً لما فيها قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

يروي القرطبي هنا الأقوال في بيان ما أعد الله تعالى لعباده في سياق الثناء على جناته، يقول: "روي: أن أنهار الجنة ليست في أخاديد، إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها، ومعنى (من قبل) يعني في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما- أنهم قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا، والثاني- هذا الذي رزقنا الدنيا، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك وقيل:"من قبل" يعني في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها في آخر النهار قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل، يعني أطعمنا في أول النهار، لأن لونه يشبه ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول، (مطهرة) نعت للأزواج، ومطهرة في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات، ذكر عبد الرازق: قال أخبرني الثوري عن إبن أبي نجيح عن مجاهد: "مطهرة" قال: لا يبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن، وقد أتينا على هذا كله في وصف أهل

[1] أحمد بن محمد المقدسي الدجاني المعروف بالقشاشي، السمط المجيد في سلاسل أهل التوحيد، تح: عاصم إبراهيم الكيالي، (بيروت: ناشرون، د...ط)، 3.

[2] البقرة، 2 /25

الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة، والحمد لله، (وهم فيها خالدون)" و(الخلود): البقاء ومنه جنة الخلد"[1].

ونظيره قوله عز وجل في الثناء على الجنة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[2].

يبين القرطبي التشبيه، ويوضح ما في الآية من مواضع الإيجاز كالحذف والذكر، يقول: "وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود، قاله مقاتل، (أكلها دائم) لا ينقطع، وفي الخبر: "إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى" وقد بيناه في" التذكرة"، (وظلها) أي وظلها كذلك، فحذف، أي ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول، وهذا رد على الجهمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى"[3].

أما الأماكن الدنيوية الموجودة على الأرض، فقد مدح الله تعالى منها بعض الجبال، مثل جبل الطور في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[4].

يقول القرطبي في تفسير الآية الكريمة: "قوله تعالى: (والطور) الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى، أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعة أجبل من

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 240/1.

[2] الرعد، 13 /35

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 325/9.

[4] الطور، 52 /1- 2- 3- 4- 5

جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة) قيل: فما الأجبل؟ قال: (جبل أحد يحبنا ونحبه والطور جبل من جبال الجنة ولبنان جبل من جبال الجنة والجودي جبل من جبال الجنة (وذكر الحديث[1])" [2].

ومدح الله تعالى الكعبة المشرفة، وأثنى سبحانه على المسجدين: المسجد الأقصى والمسجد الحرام، وذلك في قوله جلا وعلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[3].

وهنا يقوم القرطبي بتوضيح سبب تخصيص الله تعالى لهذين المسجدين بالذكر، وما جاء فيهما من أقوال صحيحة مستبعداً الآثار الواهنة أو منبهاً عليها، يقول: "إن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك، فتأمله هناك فلا معنى للإعادة، ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس"[4].

خرجه مالك من حديث أبي هريرة، وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد، لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل، ويصلي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها.

---

[1] علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسام الدين القدسي (القاهرة: مكتبة القدسي، 1994م)، 14/4، رقم الحديث: 5914، حكم الهيثمي: رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 55/17.

[3] الإسراء، 1/17

[4] **صحيح مسلم**، 1014/2، رقم الحديث: 1397 باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطاً في ثغر يسده: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة الله عز وجل، وقد زاد أبو البختري[1] في هذا الحديث مسجد الجند، ولا يصح وهو موضوع، قوله تعالى: (إلى المسجد الأقصى)، سمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ثم قال: (الذي باركنا حوله) قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار، وقيل: بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين، وبهذا جعله مقدسًا، وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي[2]"[3].

ومدح الله تعالى مكة المكرمة لوجود بيته فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[4] ويطيل القرطبي الكلام على هذه الآية، ويحصرها في خمس مسائل:

الأولى: أن المسجد الحرام والكعبة المشرفة أفضل مما سواها: ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال: (المسجد الحرام)، قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم بينهما؟ قال: (أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل) [5].

قال مجاهد وقتادة: لم يوضع قبله بيت.

---

[1] وهب بن وهب أبو البَخْتري القرشي الأسدي المدني: محدث متروك الحديث، توفي سنة 200. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 37/6.

[2] رواه من طرق آخر بلفظ آخر سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تح: حمدي السلفي، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط2، 1994م)، 194/8 رقم الحديث: 7796.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 211/10 ـ 212.

[4] آل عمران، 96/3

[5] **صحيح مسلم**، 370/1، رقم الحديث: 520، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

الثانية: تاريخ بنيان البيت عن المؤرخين يقول: "بنيان البيت وأول من بناه، قال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وأن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى، وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام، وقد روي أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله، وكل محتمل، والله أعلم".

الثالثة: الكلام عن بكة وتعيين المكان وسبب تسميتها بذلك، يقول: "ببكة" موضع البيت، ومكة سائر البلد، عن مالك بن أنس، وقال محمد بن شهاب: بكة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت، قال مجاهد: بكة هي مكة، فالميم على هذا مبدلة من الباء، كما قالوا: طين لازب ولازم، وقاله الضحاك والمؤرج، ثم قيل: بكة مشتقة من البك وهو الازدحام، تباك القوم ازدحموا، وسميت بكة لازدحام الناس في موضع طوافهم، والبك دق العنق.

وقيل: سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم.

الرابعة: سبب تخصيصه بالبركة في قوله تعالى: (مباركاً) قال: "جعله مباركاً لتضاعف العمل فيه، فالبركة كثرة الخير".

الخامسة: في معنى مقام إبراهيم والأحكام الفقهية الخاصة بالحرم يقول: "وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله، فذهب إلى أن من آياته الصفا، والمروة والركن والمقام، والباقون بالجمع، أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها، الجمهور من العلماء على أن الحدود تقام في الحرم، وقد أمر النبي صلى

الله عليه وسلم بقتل إبن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة[1] قلت: وروى الثوري عن منصور عن مجاهد عن إبن عباس: من أصاب حداً في الحرم أقيم عليه فيه، وإن أصابه في الحل ولجأ إلى الحرم لم يكلم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد، وهو قول الشعبي، فهذه حجة الكوفيين، وقد فهم إبن عباس ذلك من معنى الآية، وهو حبر الأمة وعالمها، والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النعم على كل من كان بها جاهلاً ولها منكراً من العرب"[2].

إذن نستطيع أن نخرج بنتيجة مفادها أن الله تعالى أثنى على أماكن مخصوصة في الدنيا مثل مكة المكرمة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى بهدف تعظيمها، فساق القرطبي أحكاماً تختص بإقامة الحدود فيها، كما أنه سبحانه مدح جنته تطميعاً للمؤمنين بها، لكي يعملوا فيفوزوا بما فيها من النعيم المقيم.

المبحث الثالث: المدح والثناء على الأطعمة والأشربة:

المطلب الأول: المدح والثناء على الأطعمة:

مدح الله تعالى في كتابه بعض الأطعمة ترغيباً في الحلال الطيب، وقابله بالمحرمات من الأطعمة تنفيراً عنها ونهياً عن أكلها، كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

ومن الأطعمة التي امتدحها الله سبحانه ثمرتا التين والزيتون في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[4].

---

[1] مالك بن أنس الأصبحي، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، (أبو ظبي/الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان، ط1، 2004م)، 622/3، رقم الحديث: 1599 جامع الحج.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 140/4.

[3] البقرة، 2/ 173.

[4] التين، 1/95

وقف القرطبي عند الآية الكريمة، فبين أن فيها ثلاث مسائل مهمة:

الأولى: ما المراد بالتين والزيتون في الآية الكريمة ؟، يقول: "قال إبن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي[1] وعطاء بن أبي رباح ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، قال الله تعالى: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾[2]، وقال أبو ذر: أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم سل تين، فقال: كلوا، وأكل منه، ثم قال: لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس[3].

وعن معاذ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (السواك الزيتون! من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفر، وهي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي) [4].

وروي عن إبن عباس أيضا: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي، والزيتون: مسجد بيت المقدس، وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى، إبن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس، قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق: والزيتون: الجبل الذي عليه

---

[1] إبراهيم بن يزيد النخعي أبو عمران وأبو عمار فقيه الكوفة وأحد الأئمة المشاهير ونسبته إلى النخع بفتح النون قبيلة كبيرة من مذحج باليمن توفي سنة 95 أو 96 هـ. ابن حلكان، **وفيات الأعيان**، 25/1.

[2] المؤمنون، 20

[3] شيرويه بن شهريار الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، تح :السعدي زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 986م)، 243/3، رقم الحديث: 4714 .

[4] البرهانفوري، **كنز العمال**، 321/9، رقم الحديث: 26227؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، (دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1992 م)، 595/11، قال الالباني الحديث «موضوع»

بيت المقدس، وقال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء، وقال كعب الأحبار وقتادة أيضاً وعكرمة وإبن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري[1].

الثانية: سبب القسم بهما وانتقاء القول الصحيح الراجح من بين الآراء السابقة، يقول "وأصح هذه الأقوال الأول، لأنه الحقيقة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل، وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان ستر آدم في الجنة، لقوله تعالى: ﴿يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[2] وكان ورق التين، وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه، فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجني، على قدر المضغة، وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾[3] وهو أكثر أدم أهل الشام والمغرب، يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة.

الثالثة: أحكام فقهية تتعلق بهاتين الثمرتين، يقول: قال إبن العربي: ولامتنان البارئ سبحانه، وتعظيم المنة في التين، وأنه مقتات مدخر فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه، وإنما فر كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه، تقية جور الولاة، فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرماً، حسب ما أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم، فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مال آخر يتشططون فيه، ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه، بأداء حقه، وقد قال الشافعي لهذه العلة وغيرها: لا زكاة في الزيتون، والصحيح وجوب الزكاة فيهما"[4].

---

[1] محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، أبو جعفر الطبري ولادته سنة أربع وعشرين ومائتين، بآمل طبرستان، وتوفي سنة 810 ببغداد. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 191/4-192.

[2] الأعراف، 22/7.

[3] النور، 35/24.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 111/20.

ومدح الله تعالى شجرة الزيتون وثمرتها في غير موضع، تأكيداً لشرف هذه الشجرة، وما فيها من فوائد ومنافع عظيمة، يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

يبدأ القرطبي بعرض الأقوال في معنى هذا الجزء من الآية الكريمة، يقول: "(يوقد من شجرة مباركة) وهي آدم عليه السلام، بورك في نسله وكثر منه الأنبياء والأولياء.

وقيل: هي إبراهيم عليه السلام، سماه الله تعالى مباركاً لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه، (لا شرقية ولا غربية) أي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً.

وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى تصلى قبل المشرق، (يكاد زيتها يضيء) أي يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه، (نور على نور) نبي من نسل نبي، وقال الضحاك: شبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان في قلبهما، فورث النبوة من إبراهيم، "من شجرة" أي: شجرة التقى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان شجرة أصلها نبوة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها جبريل، وميكائيل.

ثم يوجِّهُ النقد لمن شطَّ في معنى الآية الكريمة وغالى في ذلك، يقول: "يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار" يقول: يكاد إبراهيم يتكلم بالوحي من قبل أن يوحى إليه، "نور على نور" إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم، قال القاضي: وهذا كله عدول عن الظاهر، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه"[2].

---

[1] التين، 1/95

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 264/12.

ومن الآيات التي مدح الله بها طعام الزيتون أيضاً قوله تبارك وتعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾[1]، وذكر القرطبي هنا عدة مسائل:

الأولى: أن المراد بالشجرة في أصح الأقوال هي الزيتون، وأنه أفردها بالذكر لعظيم منافعها، يقول "ويريد بها شجرة الزيتون، وأفردها بالذكر لعظيم منافعها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلة تعاهدها بالسقي والحفر وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار.

الثانية: معنى (وصبغ للآكلين) وأنه يدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله والأحكام الفقهية المتعلقة بها، يقول: ويدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، وشبه الإدام به لأن الخبز يلون بالصبغ إذا غمس فيه، وقال مقاتل: الأدم الزيتون، والدهن الزيت، وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أدماً ودهناً، فالصبغ على هذا الزيتون.

الثالثة: لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المائعات كالزيت والسمن والعسل والرب والخل وغير ذلك من الأمراق أنه إدام، وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخل فقال: (نعم الإدام الخل)[2]، رواه تسعة من الصحابة، سبعة رجال وامرأتان.

الرابعة: واختلف فيما كان جامداً كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد، فالجمهور أن ذلك كله إدام، فمن حلف ألا يأكل إدامًا فأكل لحمًا أو جبنًا حنث، وقال أبو حنيفة: لا يحنث، وخالفه

[1] المؤمنون، 20/23

[2] الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 59/4، رقم الحديث: 6857؛ مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، 3/ 1621، برقم 2051.

صاحباه، وقد روي عن أبي يوسف مثل قول أبي حنيفة، والبقل ليس بإدام في قولهم جميعاً، وعن الشافعي في التمر وجهان، والمشهور أنه ليس بإدام لقوله في التنبيه"[1].

ويعدد الله تعالى طعام أهل الجنة في سياق مدحها والثناء عليها، كما في قوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[2].

يتكلم القرطبي عن هذه الأطعمة المذكورة في الجنة، في سياق حديثه عن هذا الأسلوب القرآني في تخصيص الرمان والنخل وإخراجها من قوله تعالى (وفاكهة) لأمور منها: أنها ليست من الفواكه، أو لأنها من ألوان الفواكه التي يعجبون بها فكرر ذكرها، يقول: "فيه مسألتان، الأولى- قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة، لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره، وهذا ظاهر الكلام، وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة كقوله تعالى: ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾[3].

وقيل: إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا، لأن النخل عامة قوتهم، والرمان كالثمرات، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها، وقيل: أفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه".

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 114/12.

[2] الرحمن، 55/66- 67- 68.

[3] البقرة، 98/2.

ثم انتقل القرطبي إلى الأقوال الواردة في صفة هذه الفاكهة، "قال إبن عباس: الرمانة في الجنة مثل البعير المقتب، وذكر إبن المبارك[1] قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير[2] عن إبن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيه عجم، قال: وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وإن ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعًا"[3].

ومن الآيات التي كرر فيها سبحانه مديح الرمان والزيتون والنخل، قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[4].

ويرى القرطبي أن السبب في هذا التخصيص كما يقول: "خص الرمان والزيتون بالذكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم، وهو كقوله: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"، ردهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه"[5].

---

[1] عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن، ولد سنة 118هـ أفنى عمره في الأسفار. ومات بهيت (على الفرات) منصرفا من غزو الروم، في سنة 181 . الزركلي، **الأعلام**، 115/4.

[2] سعيد بن جبير بن هشام الوالبي: الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أحد أعلام التابعين قتله الحجاج بن يوسف. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 7/ 355.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 185/17.

[4] الأنعام، 144/6

[5] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 49/7.

ومدح الله تعالى الحبَّ كالقمح والشعير وغيرها من الأصناف في معرض قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[1].

يوضح القرطبي مذاهب النحويين في إضافة الحب إلى الحصيد، يقول: "التقدير: وحب النبت الحصيد وهو كل ما يحصد، هذا قول البصريين، وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول وحق اليقين وحبل الوريد ونحوها، قاله القراء، والأصل الحب الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت، وقال الضحاك: حب الحصيد البر والشعير، وقيل: كل حب يحصد ويدخر ويقتات"[2].

استناداً إلى ما سبق يمكن القول إن الله سبحانه وتعالى أثنى على أصناف من الأطعمة في معرض إنعامه على عباده بما أخرج لهم من الزروع والثمار، وجعلِها مختلفة الطعم واللون، وجعلِ الأرض صالحة مهيئة لذلك، تنبيهاً على عظمته وقدرته أولاً، وعلى سعة رزقه ثانياً، لكي يقوم عباده بشكره على هذه النعم ويجتنبوا ما نهى عنه من أطعمة محرمة، فيدوم عليهم فضله ويستجيب لدعائهم ويدخلهم جناته.

المطلب الثاني: المدح والثناء على الأشربة:

إن الله عز وجل حرَّم علينا كثيراً من الأشربة، وعوضنا عنها بصنوف الشراب من لبن أو ماء أو عسل، وقد أثنى الله تعالى على الماء إشارةً إلى أنه من أكبر النعم، وفيه دليل على الصانع الخالق، سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

---

[1] ق، 9/50

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 5/17 وما بعد.

[3] الأنبياء، 30/21

استنبط القرطبي من الآية فوائد، فالماء أصل كل شيء، وبه حفظ كل شيء، وخلق الله من ماء الصلب كل شيء حي، واستدل لذلك بحديث نبوي شريف، يقول: "وفي قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء، قاله قتادة. الثاني- حفظ حياة كل شيء بالماء، الثالث- وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي، قاله قطرب[1]، "وجعلنا" بمعنى خلقنا، وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله! إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: (كل شيء خلق من الماء) [2] الحديث، قال أبو حاتم قول أبي هريرة:" أنبئني عن كل شيء" أراد به عن كل شيء خلق من الماء" والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال: (كل شيء خلق من الماء) وإن لم يكن مخلوقا، وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السماوات والأرض رتقًا، وقيل: الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله: "﴿وأوتيت من كل شيء﴾[3]"[4].

ووعد الله سبحانه أصحاب اليمين بماء مسكوب، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ... وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾[5].

جاء عند القرطبي في تفسير الآية ما يلي: "(وماء مسكوب) أي جارٍ لا ينقطع، وأصل السكب الصب، يقال: سكبه سكباً، والسكوب انصبابه، يقال: سكب سكوباً، وانسكب انسكابًا، أي وماء مصبوب يجري الليل والنهار في غير أخدود لا ينقطع عنهم.

---

[1] محمد بن المستنير النحوي البصري الملقب من أئمة النحو واللغة أخذ عن سيبويه الذي لقبه بقطرب، وقطرب: اسم دويبة لا تزال تدب ولا تفتر، وهو بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء وبعدها باء موحدة. وله من التصانيف: معاني القرآن وكتاب الاشتقاق وكتاب القوافي والمثلث وغيرها، وتوفي نحو (206هـ). ابن خلكان **وفيات الأعيان**، 312/4.

[2] صحيح ابن حبان، 299/6، رقم الحديث: 2559. باب إيجاب دخول الجنة للقائم.

3 النمل، 23/27.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 284/11.

[5] الواقعة، 27/56- 28- 29-30-31

وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطرادها"[1].

وفي سياق الثناء على الأشربة أشار الله تعالى في إحدى الآيات إلى أن العبد الشاكر هو أول من يجنى ثمار شكره، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[2]، وأكد القرطبي هذا المعنى في تفسير الآية؛ فذكر أن هذا الوعد جاء بعد حبس الماء عنهم سبع سنوات، فهو من ألوان الترغيب والترهيب، يقول: "وماء غدقاً" أي واسعاً كثيراً، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين، يقال: غدقت العين تغدق، فهي غدقة، إذا كثر ماؤها، وقيل: المراد الخلق كلهم أي لو استقاموا على الطريقة طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين لأسقيناهم ماء غدقاً أي كثيراً"[3].

ووصف الله تعالى الماء بأوصاف مختلفة، ففي الآية السابقة وصفه بالغدق، وفي الآية الآتية وصفه بالثجاج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[4].

ركز القرطبي في الآية على المعنى اللغوي مستشهداً بما جاء في كلام العرب نثراً وشعراً، مع التذكير بأن الماء هو أصل الحياة وبه تحيا الزروع والبساتين والحقول، يقول: "ماء ثجاجاً صباباً متتابعاً، عن إبن عباس

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 208/17.

[2] الجن، 16/72

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 18/19.

[4] النبأ، 14/78

ومجاهد وغيرهما، يقال: ثججت دمه فأنا أثجه ثجاً، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعد، والثجاج في الآية المنصب.

وقال الزجاج[1]: أي الصباب، وهو متعد كأنه يثج: نفسه أي يصب، وقال عبيد بن الأبرص[2]:

فثج أعلاه ثم ارتج أسفله ... وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الحج المبرور فقال: (العج والثج) [3]، فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا، وقال إبن زيد: ثجاجاً كثيراً، والمعنى واحد، قوله تعالى: لنخرج به أي بذلك الماء حباً كالحنطة والشعير وغير ذلك ونباتا من الأب، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش، وجنات أي بساتين ألفافاً أي ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف"[4].

ومن الأشربة التي أثنى الله عليها الخمرةَ التي وعدها لأهل الجنة، لأن الجزاء من جنس العمل، وفيه وصف حال المؤمن وقد دارت عليه الأكواب والقوارير، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[5].

---

1 هو إبراهيم بن محمد بن السريّ بن سهل، أبو إسحاق الزّجّاج، النحويّ، من أكابر أهل العربية، ت 311هـ. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، 183/1. القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 194/1. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 49/1.

2 عبيد بن الأبرص الأسدي، **الديوان**، شرح: أحمد عدرة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1994م)، 46.

3 الترمذي، **السنن**، 181/2. رقم الحديث: 827، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر ؛ رواه الحاكم، **المستدرك على الصحيحين للحاكم** ، 620/1، برقم 1655، قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد.

4 القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 174/19.

5 الواقعة، 15/56- 16- 17- 18- 19

يقارن القرطبي في الآية بين خمر الدنيا وما فيها من آيات وعيوب، وبين الخمرة التي وعد الله تعالى عباده في الجنة، يقول: "والمعين: الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون، وقيل: الظاهرة للعيون فيكون (معين) مفعولا من المعاينة، وقيل: هو فعيل من المعن وهو الكثرة، وبين أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلف ومعالجة، قوله تعالى: (لا يصدعون عنها) أي لا تنصدع رؤوسهم من شربها، أي أنها لذة بلا أذى بخلاف شراب الدنيا، (ولا ينزفون) تقدم في (والصافات) أي لا يسكرون فتذهب عقولهم، وقرأ مجاهد: (لا يصدعون) بمعنى لا يتصدعون أي لا يتفرقون، (ينزفون) بكسر الزاي، أي لا ينفد شرابهم ولا تقنى خمرهم، ومنه قول الشاعر[1]:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم.... ... لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

وروى الضحاك عن إبن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال"[2].

ويمدح الله تعالى خمرة الجنة بأوصاف مختلفة في سياق الثناء عليها مع بيان حال المؤمنين فيها كما في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[3].

[1] البيjt منسوب للأبيرد اليربوعي وهو شاعر أدرك بني أمية مقل ليس له ديوان، والبيت من الشواهد اللغوية والنحوية، عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب **لسان العرب**، تح: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط4، 1997م)، 388/9

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 203/17.

[3] الصافات، 37/45-46-47

يعيِّن القرطبي المقصود من الرحيق في الآية بأنه الخمر، ثم يقارن بين ما جاء من وصف الشعراء لخمر الدنيا وبين ما مدح الله تعالى به شراب الجنة مستعيناً بثقافة تراثية، يقول: "(يسقون من رحيق) أي من شراب لاشيء فيه، قاله الأخفش والزجاج، وقيل الرحيق الخمر الصافية، وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر، والمعنى واحد، الخليل: أقصى الخمر وأجودها وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، قال حسان:

يسقون من ورد البريصِ عليهم .... بردى يصفِّقُ بالرحيقِ السَّلسلِ[1]

(مختوم ختامه مسك) قال مجاهد: يختم به آخر جرعة، وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتم المسك، وكان إبن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك، ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه، وهو حسن، لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك، وعن مسروق عن عبد الله قال: المختوم الممزوج، وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار، وفي الصحاح: والختام: الطين الذي يختم به، وكذا قال مجاهد وإبن زيد: ختم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين، حكاه المهدوي.

1 حسان بن ثابت الأنصاري، **الديوان**، قدم له: عبد مهنا،(بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1994م)، 184.

وقال الأعشى[1]: وأبرزها وعليها خُتُمْ: أي عليها طينة مختومة، مثل نفض بمعنى منفوض، وقبض بمعنى مقبوض، وذكر إبن المبارك وإبن وهب[2]، واللفظ لإبن وهب، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ختامه مسك: خلطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم: إن خلطه من الطيب كذا وكذا"[3].

وجمع الله تعالى أنواعاً من الأشربة الطيبة الحلال في موضع واحد، في سياق وعدِه للمؤمنين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما في قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[4].

يبين القرطبي فضائل ومزايا الأشربة التي أعدها للمؤمنين في الجنة، في سياق المقارنة بحال الكافرين، مع شرح الصفة التي أضيفت إلى كل منها مدعماً كلامه بالأمثلة والشواهد المناسبة، يقول: "فيها أنهار من ماء غير آسن" أي غير متغير الرائحة، والآسن من الماء مثل الآجن.. وأسن الرجل أيضاً يأسن (بالكسر لا غير) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه، قال زهير[5]:

قد أترك القرن مصفراً أنامله ..... يميد في الرمح ميد المائح الأسِنِ

---

[1] شطر بيت للأعشى أوله: وصهباء طاف يهوديها. ميمون بن قبس البكري، ديوان الأعشى، شرح وتحقيق: محمد حسين، (بيروت: المكتب الشرقي، د.ت.ط)، 71.

[2] عبد الله بن وهب الفهري بالولاء المصري: فقيه من أصحاب الإمام مالك، ولد بمصر وتوفي بها سنة 197هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 36/3.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 265/19.

[4] محمد، 15/47

[5] زهير بن أبي سلمي المزني، **الديوان**، شرح أبو العباس ثعلب، تح: فخر الدين قباوة، (دمشق: مكتبة هارون الرشيد، ط 3، 2008م)، 99

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه"أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة"، وأنهار من خمر لذة للشاربين "أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون.

يقال: شراب لذ ولذيذ بمعنى، واستلذه عده لذيذاً، "وأنهار من عسل مصفى" العسل ما يسيل من لعاب النحل، "مصفى" أي من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل، وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد)[1].

والعسل: يذكر ويؤنث، وقال إبن عباس: "من عسل مصفى" أي لم يخرج من بطون النحل"، ولهم فيها من كل الثمرات من "زائدة للتأكيد" ومغفرة من ربهم "أي لذنوبهم" كمن هو خالد في النار" قال القراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار"[2].

ويظهر مما سبق أن الله تعالى أحلَّ أشربةً، وحرَّم أخرى، ومدح تلك الأشربة الطيبة ووصفها بأوصاف محمودة، كما وصف الأشربة المحرمة بأوصاف مذمومة، تذكيراً لهم بنعمه عليهم، وترغيباً للمؤمنين بأن يمتحنوا أنفسهم بالأعمال الصالحة، وتحذيراً لهم ممن خالف أوامره، لأخذ العظة والاعتبار، وتنبيهاً على قدرة الله تعالى في سلب الأشياء صفاتها وإبدالها بأخرى كما في وصف خمرة الجنة، أو اللبن أو العسل، كما بينا فيما جاء عند القرطبي من شرح للآيات وتبيان لمعانيها.

---

[1] الترمذي، **السنن**، 281/4، رقم الحديث: 2571 باب ما جاء في صفة أنهار الجنة .حكم الترمذي: حسن صحيح.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 237/16.

المبحث الرابع: منهج القرطبي في تفسير آيات المدح والثناء:

تنوعت مناهج المفسرين وطرائقهم في تفسير القرآن الكريم، فهناك مدرسة التفسير بالمأثور، وهناك مدرسة التفسير بالرأي، وهناك التفسير الصوفي أو الإشاري، وتفسير الفقهاء، وقد نسب بعض الباحثين القرطبي إلى المدرسة الأخيرة، وعلى الرغم من ذلك يعد تفسير القرطبي موسوعة علمية تزخر بألوان المعارف، وعند الوقوف على آيات المدح والثناء نلاحظ أن القرطبي اتبع منهجاً أو أسلوباً واضحاً يقوم على ما يلي:

المطلب الأول: الاهتمام باللغة:

إهتم القرطبي في توضيح معاني آيات المدح والثناء بالألفاظ وتفسير الغريب منها، وكان ينقل عن أئمة اللغويين مثل أبو عبيدة معمر بن المثنى وإبن زيد وإبن كيسان وغيرهم، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

نجد القرطبي هنا يستعرض معنى الملائكة في معاجم اللغة، ويبحث عن جذرها ومدلولاتها في المعنى، يقول: "الملائكة واحدها ملك، قال إبن كيسان[2] وغيره: وزن ملك فعل من الملك. وقال أبو عبيدة[3]، هو مفعل من لأك إذا أرسل، والألوكة والمألكة والمألكة[4]: الرسالة، قال لبيد[5]:

---

[1] البقرة، 30/2

[2] محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن ابن كيسان: عالم بالعربية من أهل بغداد ووفاته سنة 299هـ. السيوطي، طبقات النحويين واللغات، 18/1. الزركلي **الأعلام**، 308/5.

[3] أبو عبيدة معمر بن المثنى، التميمي البصري النحوي العلامة قيل: توفي بالبصرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وله ثمان وتسعون سنة في خلافة المأمون. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 235/5 .

[4] محمد بن يعقوب الفيروزآيادي أبو طاهر، القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، (بيروت: الرسالة، ط8، 2005م)، 932.

[5] لبيد بن ربيعة العامري، شرح **الديوان**، تح: إحسان عباس، (الكويت: التراث العربي، 1962م)، 178.

وغلام أرسلته أمه ... بأُلوكٍ فبذلنا ما سألْ

ويقال: ألكني أي أرسلني، فأصله على هذا مألك، الهمزة فاء الفعل فإنهم قلبوها إلى عينه فقالوا: ملأك، ثم سهلوه فقالوا ملك، وقيل: أصله ملأك من ملك يملك، نحو شمأل من شمل، فالهمزة زائدة عن إبن كيسان أيضاً"[1].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على التوراة والإنجيل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[2].

حاول القرطبي الوقوف على معنى التوراة والإنجيل، ويبدو اهتمامه بالاشتقاق اللغوي لأصل الكلمتين واضحاً، وهو ينقل عن كبار أئمة اللغة وعن المفسرين الذين سبقوه أيضاً، وكان يفاضل بين تلك الآراء ويرجح فيما بينها ولا يكتفي بالنقل، ويستند إلى أدلة ثابتة فيما يميل إليه ويرجحه، فقد مال إلى أن معنى التوراة والإنجيل الضياء والنور، يقول: "والتوراة معناها الضياء والنور، مشتقة من ورى الزند ووري لغتان إذا خرجت ناره، وأصلها تورية على وزن تفعلة، التاء زائدة وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفا،

وقال الخليل: أصلها فوعلة، فالأصل وورية، قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في تولج، والأصل وولج فوعل من ولجت، وقلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها، وبناء فوعلة أكثر من تفعلة، وقيل: التوراة

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 263/1. و محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، 394/10.

[2] آل عمران، 3/3

مأخوذة من التورية، وهي التعريض بالشيء والكتمان لغيره، فكأن أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح، هذا قول المؤرخ[1].

والجمهور على القول الأول لقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين﴾[2] يعني التوراةَ[3].

والإنجيل: إفعيل من النجل وهو الأصل، ويجمع على أناجيل وتوراة على توار، فالإنجيل أصل لعلوم وحكم، ويقال: لعن الله ناجليه، يعني والديه، إذ كانا أصله، وقيل: هو من نجلت الشيء إذا استخرجته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، ومنه سمي الولد والنسل نجلاً لخروجه، والنجل الماء الذي يخرج من النز، واستنجلت الأرض، وبها نجال إذا خرج منها الماء، فسمي الإنجيل به، لأن الله تعالى أخرج به دارساً من الحق عافياً، وقيل: هو من النجل في العين (بالتحريك) وهو سعتها، وطعنة نجلاء، فسمي الإنجيل بذلك، لأنه أصل أخرجه لهم ووسعه عليهم ونوراً وضياءً"[4].

3 ـ قوله تعالى في الثناء على بعض الأشربة في الجنة:

---

[1] أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي العالم اللغوي أخذ العربية عن الفراهيدي وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج، له عدة تصانيف منها الأنواء وغريب القرآن وجماهير القبائل، ووفاته نحو 195هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 306/5.

[2] الأنبياء، 48/21

[3] ينظر حول التوراة وأصلها واشتقاقها: محمد بن محمد الحسيني المعروف بمرتضى الزبيدي، **تاج العروس** من جواهر القاموس، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 2001م)، 40 / 190.

[4] الأزهري، **تهذيب اللغة**، 56/11، مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، 458/3.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1].

يستعين القرطبي في توضيح المعاني اللغوية للكلمات القرآنية بما ورد عند أئمة اللغة، ويؤيد قوله بما ورد من كلام العرب شعرها ونثرها، يقول في شرح معنى (آسن) "من ماء غير آسن" أي غير متغير الرائحة، والآسن من الماء مثل الآجن، وأسن الرجل أيضاً يأسن (بالكسر لا غير) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه، قال زهير[2]:

قد أترك القرن مصفراً أنامله ... يميد في الرمح ميد المائح الأسِنِ"[3].

المطلب الثاني: الاهتمام بالنحو والصرف:

أفاد القرطبي من علمي النحو والصرف في تفسير آيات المدح والثناء، بما لها من أثر في توجيه المعنى والدلالة عليه، ومن الأمثلة الصرفية:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على نفسه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[4].

---

[1] محمد، 15/47

[2] زهير بن أبي سلمي المزني، **الديوان**، شرح أبو العباس ثعلب، تح: فخر الدين قباوة، (دمشق: مكتبة هارون الرشيد، ط 3، 2008م)، 99

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 237/16.

[4] البقرة، 255/2

إعتنى القرطبي بالحالة الصرفية في كلمة (القيوم) يقول: "وأصل قيوم قيووم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، ولا يكون قيوم فعولا، لأنه من الواو فكان يكون قيووما، وقرأ إبن مسعود وعلقمة والأعمش والنخعي "الحي القيام" بالألف، وروي ذلك عن عمر، ولا خلاف بين أهل اللغة في أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة، والقيام منقول عن القوام إلى القيام، صرف عن الفعال إلى الفيعال، كما قيل للصواغ الصياغ"[1].

ومن الأمثلة النحوية:

2 . قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2].

ينقل القرطبي عن أئمة النحو مثل الخليل الفراهيدي وسيبويه وغيرهما في معرض تفسير الآية التي هي في الثناء على الله تعالى المستحق لكل حمد على إنعامه بوصفه الحكيم الخبير يقول: "(الذي) في موضع خفض على النعت أو البدل، ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ، و(أن يكون) في موضع نصب بمعنى أعني، وحكى سيبويه "الحمد لله أهل الحمد" بالرفع والنصب والخفض، والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله، إذ النعم كلها منه"[3].

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 272/3.
[2] سبأ، 1/34
[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 259/14.

المطلب الثالث: الاهتمام بأسباب النزول:

تعد معرفة أسباب النزول من علوم القرآن التي لا غنى لأي مفسر عنها، لمعرفة السبب أو الحادثة التي نزلت فيها الآية فيزيد معناها جلاء ومن الأمثلة على ذلك:

1 . قوله تعالى في الثناء على المسجد الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

فقد إستدل القرطبي على تفضيل المسجد الحرام على ما سواه من المساجد والبقاع بما ورد من سبب نزول هذه الآية، يقول: "ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال: (المسجد الحرام)، قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم بينهما؟ قال: (أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل)[2]، قال مجاهد وقتادة: لم يوضع قبله بيت، قال علي رضي الله عنه: كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أول بيت وضع للعبادة، وعن مجاهد قال: تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله هذه الآية"[3].

المطلب الرابع: الاهتمام بعلم القراءات:

يعد علم القراءات من أهم العلوم لما له من دور وأثر في توجيه المعنى، وهذا ما ظهر في تناول القرطبي لآيات المدح والثناء، ومن الأمثلة على ذلك:

---

[1] آل عمران، 96/3

[2] الحديث رواه مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، 1/ 370 ، برقم520

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 140/4.

1 ـ قوله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى أَنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[1].

وقف القرطبي هنا على قراءة (مخلصاً) بفتح للام أو كسرها، يقول "قوله تعالى: (واذكر في الكتاب موسى) أي واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى، (إنه كان مخلصاً) في عبادته غير مرائي، وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام[2]، أي أخلصناه فجعلناه مختارا".

2 ـ وقوله تعالى أيضاً في الثناء على نبي الله موسى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[3].

يقول القرطبي مبيناً وجوه المعاني في قراءة (رسالتي) بين الإفراد والجمع: "قوله تعالى: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) الاصطفاء: الاجتباء، أي فضلتك، ولم يقل على الخلق، لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة وأرسله وأرسل غيره، فالمراد "على الناس" المرسل إليهم، وقرأ "برسالتي" على الإفراد نافع[4] وإبن كثير، والباقون بالجمع، والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها، ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه، كما قال: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[5]، فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين، ووجد في قوله "الصوت" لما أراد به جنسًا واحدًا من الأصوات"[6].

---

[1] مريم، 51/19

[2] الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، تح: بدر قهوجي وبشير جويجابي، (دمشق ـ بيروت: دار المأمون للتراث، ط3، 1993م)، 421/4.

[3] الأعراف، 144/7

[4] نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم الشجعي، المقرئ المدني أحد القراء السبعة؛ وتوفي سنة 59هـ. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**: 68/5.

[5] لقمان، 19/31.

[6] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 280/7.

3 ـ قوله تعالى في الثناء على أوقات مخصوصة: ﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾[1].

يعلل القرطبي لماذا خصص الله تعالى هذه الصلاة بالذكر، ثم يعرض لما فيها من قراءات يقول: "وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبل في عموم الصلوات تشريفاً لها، كقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾[2]، وقرأ أبو جعفر الواسطي "والصلاة الوسطى" بالنصب على الإغراء، أي والزموا الصلاة الوسطى، وقرأ قالون[3] عن نافع "الوصطى" بالصاد لمجاورة الطاء لها، لأنهما من حيز واحد، وهما لغتان كالصراط ونحوه"[4].

المطلب الخامس: الاهتمام بالسيرة النبوية:

إعتنى القرطبي في تفسيره لآيات المدح والثناء بأمور تتعلق بالسيرة النبوية، ومن هذه الأمور:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على يوم الجمعة:

بيَّن القرطبي في بيان ثناء الله تعالى على هذا اليوم المبارك، بأول جمعة أقيمت في الإسلام، وفي الحادثة التي مهدت لها، يقول: "قال إبن سيرين: جمع أهل المدينة من قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذين سموها الجمعة، وذلك أنهم قالوا: إن لليهود يوما يجتمعون فيه، في كل سبعة أيام يوم وهو السبت، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه– ونستذكر– أو كما قالوا– فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه

---

[1] البقرة، 2 /238

[2] الأحزاب، 7/33.

[3] قالون عيسى بن مينا، أبو موسى مقرئ المدينة، وتلميذ نافع. هو: الإمام، المجود، النحوي، كان شديد الصمم، فكان ينظر إلى شفتي القارئ ويرد. مات سنة عشرين ومائتين، عن نيف وثمانين سنة. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 326/10– 327

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 207/3.

يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة (أبو أمامة رضي الله عنه) فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا، فذبح لهم أسعد شاة فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم، فهذه أول جمعة في الإسلام"[1].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على بيته الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

يعلق القرطبي على الآية فيذكر حادثة من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، يُبنَى عليها حدٌّ من حدود الله المتعلقة بالحرم، يقول: "الجمهور من العلماء على أن الحدود تقام في الحرم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل إبن خطل[3] وهو متعلق بأستار الكعبة"[4].

المطلب السادس: الاهتمام بعلم التاريخ:

نقل القرطبي في معرض تفسير آيات المدح والثناء عن المؤرخين أقوالهم حول بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى وما شابه ذلك دون أن يبدي رأيه ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على شهر رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 97/18.

[2] آل عمران، 96/3

[3] ابن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل. رجل من بنى تيم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ارتد. عبد الملك بن هشام الحميري جمال الدين، السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، (القاهرة: مصطفى البابي الحبي، ط2، 1955م)، 410/2.

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 140/4.

[5] البقرة، 185/2

يقول القرطبي معلقاً على الآية: "قال أهل التاريخ: أول من صام رمضان نوح عليه السلام لما خرج من السفينة، وقد تقدم قول مجاهد: كتب الله رمضان على كل أمة، ومعلوم أنه كان قبل نوح أمم، والله أعلم"[1].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على المسجد الحرام:

إستدل القرطبي بما جاء عن أهل التواريخ للخروج من إشكالية تعارض حديثين بين من خلالها على أن المسجد الحرام أسس قبل المسجد الأقصى يقول: "قال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفي سنة، وأن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى، وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام، كما خرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثة سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه (فجاء إشكال بين الحديثين)، لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة، قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة، فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جددا ما كان أسسه غيرهما، وقد روي أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله، وكل محتمل، والله أعلم".

المطلب السابع: الاهتمام بعلم الفقه:

يعد تفسير القرطبي من ألوان التفسير الفقهية، يتضح ذلك من اهتمامه بأحكام القرآن الفقهية، ومن اسم التفسير (الجامع لأحكام القرآن)، وينتمي القرطبي إلى المذهب المالكي، فهو يهتم بذكر أقوال الإمام

[1] الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** ، 1081/3.

مالك بن أنس في تفسيره، ولكن دون أن يتعصب لمذهبه، بل يذكر الأقوال من المذاهب الأربعة الأخرى، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على شجرة الزيتون وثمرتها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾.

يبين القرطبي هنا اختلاف الفقهاء حول معنى الإدام، لما يبنى عليه من أحكام كعقد اليمين والحنث به، يقول: "واختلف فيما كان جامداً كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد، فالجمهور أن ذلك كله إدام، فمن حلف ألا يأكل إدامًا فأكل لحمًا أو جبنًا حنث، وقال أبو حنيفة: لا يحنث، وخالفه صاحباه، وقد روي عن أبي يوسف مثل قول أبي حنيفة، والبقل ليس بإدام في قولهم جميعاً، وعن الشافعي في التمر وجهان، والمشهور أنه ليس بإدام لقوله في التنبيه"[1].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على شهر رمضان المبارك: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

هنا يوضح القرطبي مذاهب الفقهاء حول ما يثبت به رؤية الهلال، يقول: فرض الله صيام شهر رمضان أي مدة هلاله، وبه سمي الشهر، كما جاء في الحديث: (فإن غمي عليكم الشهر) أي الهلال، واختلف مالك والشافعي هل يثبت هلال رمضان بشهادة واحد أو شاهدين، فقال مالك: لا يقبل فيه شهادة

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 114/12.
[2] البقرة، 185/2

الواحد لأنها شهادة على هلال فلا يقبل فيها أقل من اثنين، أصله الشهادة على هلال شوال وذي الحجة. وقال الشافعي وأبو حنيفة: يقبل الواحد"[1].

المطلب الثامن: الاهتمام بعلم العقائد والكلام:

إعتنى القرطبي بعلم الكلام، وكانت عقيدته كعقيدة السلف في تأويل الصفات، وذلك بتنزيه الله تعالى عن الكيف والجهة، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على نفسه: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[2].

يقول القرطبي في تفسير الاستواء: "وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة"[3].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على نفسه: "﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

يعلق القرطبي موضحاً معنى الحق في الآية الكريمة مستدلاً ببعض كلام المتكلمين ومصطلحاتهم (واجب الوجود) يقول: " والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 290/2.
[2] الأعراف، 54/7.
[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 220/7.
[4] الحج، 6/22

وجوده، ولهذا قال في آخر السورة ﴿أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[1] والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى، وقيل: ذو الحق على عباده، وقيل: الحق بمعنى في أفعاله"[2].

[1] الحج، 62/22.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 14/12 ـ 15.

الفصل الثاني: منهج إبن عاشور حول مفهومي المدح والثناء في تفسيره التحرير والتنوير:

المبحث الأول: المدح والثناء على الله وملائكته ورسله وكتبه:

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعله خليفةً له على الأرض، وأكرمه، وسخر له الرياح، والسحاب، والإبل، وأنزل له من السماء ماءً خلقَ منه كل شيء حي، وغير ذلك ممّا أنعمَ الله جل وعلا به على الإنسان من نعمٍ وفضائل لا تعدّ، ولا تحصى، ولذلك كله حريٌّ بالإنسان أن يعبده، مقرًا بعبوديته له، ووحدانيته، وقدرته.

وقد تجلت هذه المعاني، وغيرها في القرآن الكريم، إذ كثرت الآيات الكريمة في مدح الله سبحانه وتعالى، والثناء على أسمائه وصفاته، فوقف المفسرون على هذه الآيات بغية تفسيرها، وتوضيحها، وكان لكل واحدٍ منهم منهجٌ اتبعه في تفسيره، يميزه عن غيره من المفسرين.

ويعد محمد الطاهر بن عاشور أحد المفسرين البارزين الذي عُني بتفسيره الموسوم بالتحرير والتنوير بشرح معاني الآيات، وتوضيح دلالاتها، وبيان بلاغتها، موظفًا علومه ومعارفه فيما قدمه في تفسيره، ومنها آيات المدح والثناء التي توزعت على مدح الله سبحانه وتعالى، ومدح ملائكته، ورسله، وكتبه، وعباده الصالحين، فضلًا عن مدح الأزمنة والأمكنة والثناء عليهما، وكذلك مدح ما ورد في الآيات من أطعمة وأشربة.

ومما لا شك فيه أن الوقوف على جميع الآيات الكريمة التي تضمنت المدح والثناء أمرٌ صعبٌ تحقيقه في هذا البحث، نظرًا لكثرة الآيات الكريمة التي برزت فيها معاني المدح والثناء، ولذلك سوف يقتصر البحث في هذا الفصل على دراسة المنهج الذي اتبعه إبن عاشور في تفسيره لآيات المدح والثناء، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: المدح والثناء على الله وملائكته:

أولًا: المدح والثناء على الله:

كثرت الآيات الكريمة التي برزت فيها معاني المدح والثناء على الله سبحانه وتعالى، منها المدح والثناء بصفة الحي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1].

يلاحظ أن معاني المدح والثناء على الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أنه جل وعلا حيٌّ قيوم، له ملك السماوات والأرض، عالمٌ كل شيء، عليٌّ عظيم، وقد رأى إبن عاشور أن هذه الآية الكريمة استئناف "بذكر تمجيد الله، وذكر صفاته إبطالًا لكفر الكافرين وقطعًا لرجائهم، لأن فيها من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه"[2].

ثم إنتقل إبن عاشور إلى بيان سبب ابتداء هذه الآية باسم الذات (الله) مبينًا أن ذلك مرده إلى الدلالة على أنه جل وعلا منفردٌ بهذا الاسم، وبعد ذلك حرص إبن عاشور على إعراب الجمل والمفردات، فذكر أن جملة (لا إله إلا هو الحي القيوم) خبرٌ أول عن اسم الجلالة، وأن مفردة (الحي) هي خبرٌ لمبتدأ محذوف، و(القيوم) خبر ثان للمبتدأ المحذوف، وكذلك عمد إلى ذكر ما تضمنته الآية من معاني المفردات ومقاصد العبارات، ومن ذلك إشارته إلى أن المقصود من قوله تعالى (الحي) "إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصفَ الإلهية لانتفاء

---

[1] البقرة، 255/2

[2] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط1، 1984) 17/3.

الحياة عنهم"[1]، مستشهدًا على ذلك بقوله تعالى من سورة مريم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[2].

وأورد إبن عاشور في تفسيره معنى (الحي) آراء المفسرين، فذكر بأن المتكلمين ذكروا أن الحي "صِفَةٌ تُصَحِّحُ لِمَنْ قَامَتْ بِهِ الْإِدْرَاكَ وَالْفِعْلَ"[3]، أما الزمخشري في الكشاف فقد فسر (الحي) بالباقي[4]، أي دائم الحياة.

ووقف إبن عاشور عند البنية الصرفية لمفردة (الحي) فذكر أنها "صفة مشبهة من حيي، أصله حَيِيٌّ كَحَذِرٍ أُدْغِمَتِ الْيَاءَانِ"[5]، ثم تحدث عن العلاقة بين (الحي) وجملة (لا تأخذه سنة ولا نوم) فذهب إلى القول بأن "نفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثباتٌ لكمال العلم، فإن السنة والنوم يشبهان الموت، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم"[6].

وتعدُّ صفة الغنى من الصفات التي برزت في آيات الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى، كما في قوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[7].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 17/3.

[2] مريم، 42/19

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/3.

[4] محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ) 299/1. و ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/3.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/3.

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 285/22.

[7] فاطر، 15/35

مهّدَ إبن عاشور لتفسيره صفة الغني ببيان أن الخطاب موجهٌ للمشركين بقوله تعالى: (يا أيها الناس)، وقبل أن يبيّن للمشركين أنه جلّ وعلا غنيٌّ "وجهَ إليهم إعلام بأنهم الفقراء إلى الله لأن ذلك أدخلُ للذلة على عظمتهم من الشعور بأن الله غني عنهم"[1].

وأشار إبن عاشور إلى أن إتباع صفة الغني بالحميد تكميلٌ، لكي لا يتوهم المشركون بأنهم معذورون عن عبادته سبحانه وتعالى لكونه غني عن عبادتهم، لذلك نبّهَ بأنه جلّ وعلا موصوفٌ بالحمد لمن عبده[2]، واستشهد إبن عاشور على ذلك بقوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3]، واستنادًا إلى ذلك رأى إبن عاشور أن تقييد الغني "بوصف الحميد لإفادة أن غناه تعالى مقترن بجوده فهو يحمدُ من يتوجه إليه"[4].

وحُمدَ الله بصفة الرحمة، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

بدأ إبن عاشور بتفسير الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى بصفة الرحمة ببيان أن جملة (كتب على نفسه الرحمة) هي جملة اعتراضية، وهي من القول الذي أمرَّ الله جلّ وعلا رسوله الكريم بأن يقوله، ليؤكد بأن الجملة الاعتراضية قد أفادت معانٍ، منها:

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 285/22.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 286/22.

[3] الزمر، 7/39

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 286/22.

[5] الأنعام، 12/6

إن جملة (كتب على نفسه الرحمة) جوابٌ بأنه تفضَلَ بالرحمة للصالحين والضالين، فمنها رحمة كاملة: وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة مؤقتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين"[1].

إن رحمة الله ذُكرت "تعريضًا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين"[2].

وكثرَ مدحُ الله والثناء عليه بصفات وردت في آية واحدة مثل صفتي الحق والقدرة كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

جاء في تفسير التحرير والتنوير أن "الحق: الثابت الذي لا مراء فيه، أي هو الموجود" [4]، أما فيما يخص قدرة الله سبحانه وتعالى فقد فسر إبن عاشور قوله تعالى: (وأنه على كل شيء قدير) استنادًا إلى علاقة هذه الآية بالآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[5]، وبناءً على ذلك قال إبن عاشور في تفسيره: "والذي خلق الأحياء بعد أن لم تكن فيها حياة يمكنه فعلُ الحياةِ فيها، أو في بقية آثارها، أو خَلْقُ أجسام مماثلة لها، وإيداع أرواحها فيها بِالْأَوْلَى، وَإِذا كَانَ كَذَلِك عُلِمَ أن ساعة فناء هذا العالم واقعةٌ قياسًا على انعدام المخلوقات بعد تكوينها، وَعُلِمَ أن الله يُعِيدُهَا قِيَاسًا عَلَى إِيجَادِ النَّسْلِ وَانْعِدَامِ أَصْلِهِ"[6].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 151/7.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 151/7.

[3] الحج، 6/22

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 205/17.

[5] الحج، 5/22

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 205/17.

وفي سورة سبأ جاء المدح والثناء على الله سبحانه وتعالى مقترنين بصفتي الحكيم والخبير، إذ يقول الله جلّ وعلا في بداية هذه السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1]، ففي تفسير إبن عاشور لهذه الآية أشار إلى أن تقديم الجار والمجرور في قوله: (وله الحمد) أفاد الحصر، "أي لا حمد في الآخرة إلا له، فلا تتوجه النفوس إلى حمد غيره لأن الناس يومئذٍ في عالم الحق"[2]، أما فيما يتعلق بصفتي الحكيم والخبير، فقد عمد إبن عاشور إلى توضيح دلالتهما بقوله: "الحكمة: إتقان التصرف بالإيجاد وضده، والخبرة تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها"[3].

وبعد ذلك عللَ صاحب التحرير والتنوير اقتران صفتي الحكيم والخبير بأن كل واحدة من هاتين الصفتين تدل على معنى أصلي ومعنى لزومي، وهذان المعنيان مختلفان، إذ إن المعنى الأصلي للحكيم يدل على "أنه متقن التصرف والصنع لِأَنَّ الْحَكِيمَ مُشْتَقٌّ مِنَ الإحكام وهو الإتقان، وهو يستلزم العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والخبير هو العليم بدقائق الأشياء وظواهرها الأولى بحيث لا يفوته شيء منها، وهو يستلزم التمكن من تصريفها، ففي التتميم بهذين الوصفين إيماء إلى أن المقصود من الجملة قبله استحماق الَّذِينَ أَقبلُوا فِي شؤونهم عَلَى آلِهَة بَاطِلَة"[4].

ويتضح مما سبق، أن إبن عاشور قد فسر آيات المدح والثناء على الله بذكر دلالات صفاته جلّ وعلا في سياق الآيات، مُبينًا اقتران الصفات ببعضها، ومعللاً أسباب ذلك.

ثانيًا: المدح والثناء على الملائكة:

---

[1] سبأ، 1/34

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 136/22.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 136/22.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 136/22.

تعددت آيات المدح والثناء على الملائكة في القرآن الكريم، فهم يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يطيعون الله بما يؤتمرون به، وهم يسبحون بحمد الله جلّ وعلا كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ومن الآيات الكريمة التي تدل على مدح الملائكة والثناء عليهم، بما اتسموا به من فضائل، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2]، فهذه الآية تبينُ إطاعة الملائكة لله سبحانه وتعالى، وهذا ما تجلى بقوله: (فسجدوا)، فأثنى الله عليهم، وذمَّ إبليس الذي أبى واستكبر لرفضه السجود لآدم.

وقد فسر إبن عاشور هذه الآية الكريمة مُبينًا أنها عطفُ قصةٍ على قصة، فهي عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3]، وعلى ذلك رأى المفسر أن مضمون الآية: (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...) متفرعٌ على مضمون الآية التي قبلها، ما يعني أن أمرَ الله سبحانه وتعالى الملائكة "بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور ميزته عليهم إذ علمَ ما لم يعلموه، وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكرُ هذه القصص بعضها بعد بعض"[4].

وفي الآية إشارة إلى أن "الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول"[5]، وكذلك علل إبن عاشور سبب دخول الفاء على الفعل (فسجدوا) بأن العطف بفاء

---

[1] الزمر، 75/39

[2] البقرة، 34/2

[3] البقرة، 30/2

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 420/1.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 421/1.

التعقيب يدل على "مبادرة الملائكة بالامتثال، ولم يصدهم ما كان في نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق مظهرَ فسادٍ وسفك دماء لأنهم منزهون عن المعاصي"[1].

وفي التعليق على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] قال ابن عاشور: "وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلها تعريض بذم من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق، وبمدح من شابه من البشر حال الملائكة. ووصف الملائكة بأنهم لا يستكبرون تعريض ببعد المشركين عن أوج تلك المرتبة الملكية، والجملة حال من الملائكة"[3].

يتضح من خلال تفسير إبن عاشور لهذه الآية حرصه على إبراز فضائل الملائكة، فضلًا عن تعليل سبب سجودهم لآدم عليه السلام.

المطلب الثاني: المدح والثناء على الرسل وكتبهم، والعباد الصالحين:

أولًا: المدح والثناء على الرسل وكتبهم:

مدح الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الرسل الذين أرسلهم لتبليغ الرسالات السماوية، ومما جاء فيه أنه مدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه عزيزٌ، حريصٌ على المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[4]، وأنه على خلق عظيم في

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 423/1.
[2] النحل، 49/16
[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 171/14.
[4] التوبة، 128/9

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقد وضّح إبن عاشور معنى الخلق العظيم في تفسيره بأنه "متمكنٌ منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكنٌ منه في دعوته الدينية"[2].

ثم بيّنَ المفسر أن الخلق العظيم هو أعلى الخلق الحسن، وتجتمع فيه صفات"التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف لِلْمُحْسِنِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَالزُّهْدُ، والعفة، والعفو، وَالْجُمُودُ، وَالْحَيَاءُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَحُسْنُ الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة"[3].

وكذلك أشار إلى أن الأخلاق موجودةٌ في النفس، وأن مظاهرها تتجلى في "تصرفات صاحبها، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمته، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله وَمَنْ لِنَظِرِهِ، وَمَا يترتب على ذلك من حُرْمَتِهِ عند النَّاسِ، وَحُسْنِ الثناء عليه، والسمعة"[4]، ومما لا شك فيه أن هذه المظاهر كلها تجلت في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فضلًا عن "سياسته لأمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه، وجوامع كلمه"[5].

وأثنى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز على عيسى عليه السلام، وحمد صفاته وخصاله، مُبيّنًا أنه عبدُ الله، وأنه نبيٌّ مباركٌ، وبارٌّ بأمه، ونفى عنه التجبر والشقاء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[6].

---

[1] القلم، 4/68

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 64/29.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 64/29.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 64/29- 65.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 65/29.

[6] مريم، 30/19 – 31- 32- 33

وقد وقف إبن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآيات الكريمة على صفات النبي عيسى عليه السلام، فأشار إلى أن الابتداء بوصف العبودية جاء على لسان عيسى عليه السلام لأنه الله جلّ وعلا عَلِمَ "بأن قومًا سيقولون: أنه إبن الله"[1]، وأما وصفُ النبي عيسى عليه السلام فيدلُّ على "ارتقاء في المراتب التي أتاه الله إياها"[2].

وبيّنَ إبن عاشور أن قوله تعالى (وجعلني مباركًا) أفاد بأن الله سبحانه وتعالى "أرسله رحمة لبني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم وَلِيَدْعُوَهُمْ إِلَى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وَغَيَّرُوا مِنْ دِينِهِمْ، فَهَذِهِ أعظم بَرَكَةٍ تقارنه"[3]، وقد خصَّ الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام بالبر بين قومه، "لأن بر الوالدين كان ضعيفًا في بني إسرائيل يومئذ"[4]، وقد نفى الله سبحانه وتعالى صفتي التكبر والشقاء عن عيسى عليه السلام، وذلك في قوله: "(ولم يجعلني جبارًا شقيا).

وكثرت الآيات الكريمة التي مُدِحَ فيها موسى عليه السلام، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[6]، وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[7].

يتضح من هذه الآيات أن مدح موسى عليه السلام والثناء عليه تمثل في أن الله سبحانه قد اصطفاه برسالته وكلامه، وأنه اصطنعه لنفسه، وأنه عليه السلام كان مخلصًا، رسولًا، نبيًا، وقد فسّر إبن عاشور الإخلاص

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 98/16.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 98/16.
[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 99/16.
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 99/16.
[5] الأعراف، 144/7
[6] طه، 41/20
[7] مريم، 51/19

بقوله: "الإخلاص في أمرٍ ما: الإتيان به غير مَشُوبٍ بِتَقْصِيرٍ وَلَا تَفْرِيطٍ ولا هوادة، مشتقٌ من الْخُلُوصِ، وَهُوَ التَّمَحُّضُ وعدم الخلط، والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام"[1].

وقد حظيت الكتب السماوية بمدح الله وثنائه، فكثرت الصفات التي وُصِفَ بها القرآن الكريم، منها:

الكتاب: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

البرهان والنور المبين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[3].

الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4].

شفاء، وهدى، ورحمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

الفرقان: منه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[8].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 126/16.
[2] البقرة، 2/2
[3] النساء، 174/4
[4] الحجر، 9/15
[5] يونس، 57/10
[6] آل عمران، 3/3- 4
[7] الأنفال، 41/8
[8] الفرقان، 1/25

وسمي القرآن بالفرقان لأنه فرّق بين الحق والباطل "لما بيّنَ من دلائل الحق ودحض الباطل"[1]، أما التوراة والإنجيل فقد ذكرا في سياقٍ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[2]، وبيّنَ إبن عاشور في تفسيره أن التوراة "اسم عبراني أصله طُورَا بمعنى الهدى، والظاهر أنه اسمٌ للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور، لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى"[3]، وأشار إبن عاشور إلى أن بعض أهل اللغة حاولوا أن يجدوا اشتقاقًا عربيًا له، فقالوا إنه مشتق من الوري وهو الوَقْدُ[4].

أما فيما يخص معنى الإنجيل فقد عرضَ إبن عاشور آراء المفسرين مثل القرطبي والثعلبي وبعض اللغويين الذين عمدوا إلى جعله "مشتقًا مِنَ النُّجْلِ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ تَعَسُّفٌ"[5]، ويلاحظَ أن المفسر لم يجد حرجًا في رفض ما جاء به بعض اللغويين والمفسرين فيما يخص أصل كلمة الإنجيل.

ثانيًا: المدح والثناء على العباد الصالحين:

كثرت الآيات الكريمة التي مدح الله سبحانه وتعالى فيه عباده الصالحين، وأثنى عليهم، فذكر أن عباده الصالحين لا خوف عليهم، ولا يحزنون، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[6]، كما نفى جلّ وعلا أن يكون للشيطان سلطانٌ عليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 217/18.
[2] آل عمران، 3/3
[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 148/3.
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 148/3.
[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 149/3.
[6] الزخرف، 68/43

مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1]، كما أثنى عليهم بوصفهم بأنهم مخلصون، مكرمون في جنات النعيم، لهم فيها رزقٌ معلومٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾[2].

وقد نبه الله تعالى إلى أوصاف أصحاب رسول الله وشمائلهم للإشارة إلى أنهم خير أمة أخرجت للناس، في قوله جلّ وعلا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

قال إبن عاشور في التعليق على الآية: "(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) لما بيَّنَ صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه واطمأنت نفوس المؤمنين، أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين الذين معه، ومحمد خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد يعود هذا الضمير المحذوف على قوله: رسوله في الآية قبلها، وهذا من حذف المسند الذي وصفه السكاكي بالحذف الذي الاستعمال وارد على ترك المسند إليه وترك نظائره"[4].

والعلماءُ من العباد الصالحين الذين مدحهم الله سبحانه وتعالى وأثنى عليهم في كتابه الكريم لخشيتهم من الله جلّ وعلا، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[5].

---

[1] الحجر، 42/15

[2] الصافات، 40/37-41

[3] الفتح، 48/ 29.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 202/26.

[5] فاطر، 28/35

وقد فصّلَ إبن عاشور في تفسير المراد بالعلماء في هذه الآية، فذهب إلى أن المراد بالعلماء، هم العلماء بالله والشريعة، وهذا ما يجعلهم يخشون الله، أما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى، وثوابه وعقابه، فعلومهم ليست مقربة لهم من خشية الله[1]، وكذلك بيّنَ إبن عاشور أن غير العالم إذا اهتدى بعلماء الشريعة فسعيه مثل سعيهم، "وخشيته متولدّة عن خشية العلماء"[2].

تلك كانت أبرز الآيات الكريمة التي وردَ فيها مدحٌ للرسل والكتب السماوية والعباد الصالحين وثناءٌ على سماتهم، وخصائصهم والتي اجتمعت فيهم الغاية السامية المتمثلة في الهداية، فالرسلُ عليهم الصلوات والسلام دعوا إلى الحق بما أنزل الله من الكتب السماوية، أما العباد الصالحون فقد خصهم الله سبحانه وتعالى بجنات النعيم.

المبحث الثاني: المدح والثناء على الأزمنة والأمكنة:

المطلب الأول: مدح الأزمنة:

تعدُّ الأزمنة من الأمور التي وردت فيها آياتٌ دلّت على مدحٍ لها، وثناءٍ عليها، ويمكن تقسيم الآيات التي مُدح فيها ما يدل على الزمان إلى قسمين:

القسم الأول: الآيات التي وردت في مدح الشهور:

جاء ذكرُ رمضان في القرآن الكريم تعظيمًا لهذا الشهر الذي أُنزل فيه الكتاب العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 304/22- 305.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 305/2.

[3] البقرة، 185/2

تبيّنُ الآية الكريمة أن القرآن الكريم قد نزل في شهر رمضان ولذلك فضله الله سبحانه وتعالى، وهذا ما أكده إبن عاشور في تفسيره، إذ قال: "وقوله: هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان حالان من (القرآن) إشارة بهما إلى وجه تفضيل الشهر بسبب ما نزل فيه من الهدى والفرقان"[1].

ولم يكتفِ إبن عاشور بالإشارة إلى سبب تفضيل هذا الشهر الكريم، وإنما فصّل في الحديث عنه، فذكرَ أنه جزء من اثني عشر جزءًا هي شهور السنة، وتحدث عن بدايته مثل غيره من شهور السنة، وهي "من ظهور الهلال إلى المحاق ثم ظهور الهلال مرة أخرى"[2]، كما أشار إلى بنيته الصرفية فبيّنَ أنه ممنوع من الصرف، وأنه مشتق من الرمضاء، لأنه "أول شهر الحرارة بناءً على ما كان من النسيء في السنة عند العرب"[3].

القسم الثاني: الآيات التي وردت في مدح الأيام وأجزائها:

وردَ ذكر اسمين من أسماء الأيام هما يوما السبت والجمعة، فقد ذُكرَ السبت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[4]، في تفسير هذه الآية يبيّنُ إبن عاشور في كتابه التحرير والتنوير أن الله سبحانه وتعالى قد غضبَ على اليهود لحرصهم على الرزق في يوم السبت، أو لأنهم شغلوا بالهم بالفكر يوم السبت، وكان جلّ وعلا قد أمرهم بأن يحافظوا على عدم الاكتساب في يوم السبت ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا[5].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 173/2.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 169/2.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 173/2.

[4] البقرة، 2 /65.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 543/1-544..

واستنادًا إلى ذلك، رأى إبن عاشور أن معنى قوله: (اعتدوا منكم في السبت) "اعتدوا في حال تعظيم السبت، أو في زمن تعظيم السبت"[1].

وكذلك ذُكر السبت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[2]، غير أن السبت في هذه الآية ليس مقصودًا بذاته، وإنما المقصود هم أصحاب السبت الذين ذكرهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[3].

أما يوم الجمعة فقد مدحه الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]، وفي تفسير هذه الآية أوردَ إبن عاشور قولَ الزمخشري في الكشاف ومفاده: أن اليهود افتخروا على المسلمين بيوم السبت فشرّع الله جلّ وعلا للمسلمين يوم الجمعة[5]، ثم أسهب إبن عاشور في الحديث عن يوم الجمعة والصلاة فيه، فذكر أصل تسميته بهذا اليوم، وبيّنَ فضله بقوله: "وجعل يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع فشرّع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد، وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم"[6]، وبعد ذلك عمدَ إلى ذكر أقوال المفسرين والفقهاء في فضل هذا اليوم، وفي شأن الصلاة فيه.

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 544/1

[2] النساء، 4 /47.

[3] البقرة، 2 /65.

[4] الجمعة، 62 /9.

[5] الزمخشري، الكشاف، 532/4. و ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 219/28

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 219/28

وثمة آيات كريمة تجلى فيها مدحٌ لأجزاء من اليوم، مثل الضحى والليل في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1].

وكذلك، مُدحَ الفجر والليال العشر، والليل في قوله جلّ وعلا: ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[2].

وكذلك، مُدحَ زمن العصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[3]، ففي قسمِ الله جلّ وعلا بالعصر ما يدل على عظمة هذا الوقت، "فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة، أو عصرٍ معين مبارك"[4].

وقد أشار إبن عاشور في تفسيره إلى عظمة صلاة العصر، مبينًا أنها المرادُ بها الوسطى مستشهدًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾[5]، وبما جاء في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا"[6].

ونزلت سورة كاملة في تعظيم جزء من اليوم، وهي سورة القدر التي ذكر الله جلّ وعلا فيها أهمية ليلة القدر، وفضلها، وعظمتها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)

---

[1] الضحى، 93 /1- 2- 3

[2] الفجر، 89 /1- 2- 3- 4

[3] العصر، 103 /1- 2

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 528/30

[5] البقرة، 2 /238

[6] محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ) باب اليمين بعد العصر، رقم الحديث: 2672، 178/3.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

ومما جاء في تفسير إبن عاشور لهذه السورة نذكر قوله في تعريف ليلة القدر، إذ يقول: "وليلة القدر: اسم جعله الله لليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن، ويظهر أن أول تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية، ولم تكن معروفة عند المسلمين، وبذلك يكون ذكرها بهذا الاسم تشويقًا لمعرفتها، ولذلك عقب بقوله: (وما أدراك ما ليلة القدر)"[2].

ومما يدل على معنى الشرف والفضل لليلة القدر، قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[3]، وهذا ما أكده إبن عاشور فيما يخص تشريف ليلة القدر، إذ قال: "فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى"[4].

وبناءً على ذلك، يمكن القول: إن الله سبحانه وتعالى قد عظّمَ ما يدل على الزمان من شهرٍ، ويومٍ، وجزء من اليوم، وقد جعل سببًا لهذا التعظيم، فشهرُ رمضان حُمِدَ لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم، وكذلك الحال فيما يخص ليلة القدر، أما يوم الجمعة فقد جعله الله عيدًا للمسلمين، وكذلكَ تجلى مدحُ أجزاءً من اليوم مثل العصر والضحى والليل والفجر في أن الله سبحانه وتعالى أقسم بهم، وهذا ما يدل على تعظيمه لهم.

---

[1] القدر، 97 /1- 2- 3- 4- 5

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 457/30

[3] الدخان، 44 /3

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 458/30

المطلب الثاني: مدح الأمكنة والثناء عليها:

أثنى الله سبحانه وتعالى على أماكن مختلفة، وخصوصًا الجنة التي ورد ذكرها في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وقوله جلّ وعلا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[2].

وكذلك ذكر الله سبحانه وتعالى الجنة واصفًا إياها، وحال المتقين فيها، وذلك في قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

أما فيما يخص المدح والثناء على المكان في الحياة الدنيا، فقد مدح الله سبحانه وتعالى جبل الطور في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[4].

عرّف إبن عاشور الطور في تفسيره بقوله: "والطور: الجبل باللغة السريانية قاله مجاهد، وأُدخل في العربية وهورمن الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن، وغُلّب علمًا على طور سينا الذي ناجى فيه موسى عليه السلام،

---

[1] البقرة، 2 /25

[2] الرعد، 13 /35

[3] الدخان، 2 /51- 52-53- 54- 55- 56-57.

[4] الطور، 52 /1- 2- 3- 4- 5

وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة، فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه، ونزول الألواح على موسى"[1].

ويلاحظ مما جاء في تفسير إبن عاشور أنه حرص على ذكر آراء المفسرين في تفسيره، إذ أشار إلى ما جاء في تفسير مجاهد فيما يخص معنى الطور، كما أنه بيّنَ أسباب تعظيم جبل الطور، والتي تمثلت في كونه مكانًا ناجى فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام، وفيه أنزل عليه التوراة، ومما زاد من تعظيم أمر هذا الجيل أن الله سبحانه أقسم به.

وفي الآيات مدحٌ لمكانٍ ثانٍ وهو البيت المعمور، ويقصد به الكعبة، أما وصفه بالمعمور فلأنه "لا يخلو من طائف به"[2]، وقد أفاد إبن عاشور من أقوال المفسرين في سياق حديثه عن البيت المعمور فأشار إلى قول قتادة في تفسير البيت المعمور، وأورد حديثاً أخرجه الطبري في تفسيره، وهو: "أَنَّ عَلِيًّا سُئِلَ: مَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؟ فَقَالَ: "بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا، يُقَالُ: لَهُ الضُّرَاحُ"[3].

أما السقف المرفوع فقد أشار إبن عاشور إلى أن المفسرين قد فسروه بالسماء[4]، أما فيما يخص البحر المسجور فقد بيّن إبن عاشور ما قيل فيه بأن المراد به "البحر المحيط بالكرة الأرضية"[5]، بيد أنه ذهب إلى أن المعنى عنده هو "بحر القلزم، وهو البحر الأحمر، ومناسبة القسم به أنه به أُهلك فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون، والمسجور: قيل المملوء، مشتقًا من السجر، وهو الملء والإمداد، فهو صفة كاشفة قُصد

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 37/27

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 39/27

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 39/27. و محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000) 455/22.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 39/27

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 37/27

منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوء ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي، إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه، وذلك دال على عظم القدرة، والظاهر عندي: أن وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ثم أسجره، أي أفاضه على فرعون"[1].

ومن الأماكن التي مدحها الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه المسجد الأقصى والمسجد الحرام، وذلك في قوله جلّ وعلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[2].

ومما جاء به إبن عاشور من قول في الحديث عن المسجد الحرام، أنه "اسمٌ جُعلَ علمًا بالغلبة على المكان المحيط بالكعبة المحصور ذي الأبواب، وهو اسم إسلامي لم يكن يُدعى بذلك في الجاهلية، لأن المسجد مكان السجود، ولم يكن لأهل الجاهلية سجود عند الكعبة"[3].

ومما يدل على مدح الله سبحانه وتعالى للمسجد الحرام والثناء عليه أن المسجد وُصفَ بالحرام بمعنى "أنه ممنوع استعماله استعمالًا لا يناسبه"[4].

وقد أسهب إبن عاشور في كتابه التحرير والتنوير في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة في الحديث عن المسجد الحرام، فأشار إلى تاريخ بنائه، مُبينًا أن قبيلة قريش بنته في زمن الجاهلية، وجُعلت بقربه دار الندوة، ثم أشار إلى أن عمر بن الخطاب هو أول من جعل للمسجد جدارًا يُحفظ به، وذلك في سنة عشرة من الهجرة[5].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 27/39-40

[2] الإسراء، 1/17

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 87/6

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 12/15

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 13/15

كما بيّنَ إبن عاشور أن سبب تسميته بالمسجد لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد جعله لإقامة الصلاة في الكعبة، "ولما انقرضت الحنيفية، وترك أهل الجاهلية الصلاة تناسوا وصفه بالمسجد الحرام، فصاروا يقولون: البيت الحرام"[1].

أما فيما يتعلق بالمكان الثاني الذي حُمد في الآية الكريمة فهو المسجد الأقصى، وفيه قال إبن عاشور: "هو المسجد المعروف بالبيت المقدس الكائن بإيلياء، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام، والأقصى: أي الأبعد، والمراد بعده عن مكة بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصفٌ كاشفٌ اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقًا للعادة، لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة"[2].

وقد تمثل مدح الله سبحانه وتعالى لمسجدي الحرام والأقصى فيما أشارت إليه الآية الكريمة إلى أن هذين المسجدين من المساجد المفضلة في الإسلام على جميع المساجد[3]، وهذا ما أكده إبن عاشور بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ تسافر المرأة يومين إلا معها زوجها أَوْ ذُو مَحْرَمٍ، وَلاَ صوم فِي يومين الفِطْرِ وَالأَضْحَى، وَلاَ صلاة بَعْدَ صلاتين بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب، وَلاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ، إِلَّا إِلَى ثلاثة مساجد مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأقصى، وَمَسْجِدِي"[4].

ومما جاء في حمد المكان والثناء عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[5].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 14/15

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 14/15

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 15/15

[4] البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، .باب مسجد بيت المقدس، رقم الحديث: 1197، 91/2. و ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 15/15

[5] آل عمران، 96/3

في هذه الآية الكريمة ثمة تعظيمٌ لمكانين هما البيت، وبكة، إذ إن البيت كان "مقامًا لإبراهيم، ففضائل هذا البيت تحقق شريعة فضل بانيه في متعارف الناس"[1].

وكذلك تضمنت الآية الكريمة إخبارًا "بفضيلة الكعبة وحرمتها"[2].

ومما زاد من شرف المكان، وتعظيمه أن الآية الكريمة دلت على عناية الله سبحانه وتعالى بالبيت الحرام، وقد تجلت هذه العناية كما رأى إبن عاشور في كونه "أول بيت وُضع للهدى، وإعلان توحيد الله ليكون علمًا مشهودًا بالحس على معنى الوحدانية ونفي الإشراك، فقد كان جامعًا لدلائل الحنيفية، فإذا ثبت له شرف الأولية ودوام الحرمة على مر العصور، دون غيره من الهياكل الدينية التي نشأت بعده، وهو ماثل، كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحل عناية من الله تعالى"[3].

ولم يفت إبن عاشور في معرض بيان عظمة مكانة البيت الحرام أن يشير إلى ما جاء في تفسير الواحدي الذي ذكر قول مجاهد، ومفاده: "تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله هذه الآية"[4].

ومما دلَّ على أهمية مكان البيت وتعظيم الله له، ومدحه، وبيان فضله في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه مبارك، أي "جعل له بركة، وهي زيادة في الخير، أي جعلت البركة فيه بجعل الله تعالى،

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 11/4

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 11/4

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 11/4

[4] علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: 468هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994) 470/1. و ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 12/4

إذ قدّرَ أن يكون داخله مثابًا وَمُخَصَّلًا على مبلغ نِيَّتِهِ، وَقَدَّرَ لمجاوريه وسكان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثَّوَابِ وَرَفَاهِيَةِ الْحَالِ، وَأَمَرَ بجعل داخله آمنًا، وَقَدَّرَ ذَلِكَ بين الناس فكان ذلك كله بركة"[1].

أما فيما يخص مدح المكان الثاني وهو بكة، فإن المراد به مكة المكرمة، فأبدلت الميم باءً، وهذا كثير في لغة العرب، مثل لازب في لازم، وقد ذهب إبن عاشور في تفسير المراد بقوله: بكة: أنه "اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علمًا على المكان الذي عينه لسكنى ولده بنية أن يكون بلدًا، فيكون أصله من اللغة الكلدانية، لغة إبراهيم"[2].

وقد عمد إبن عاشور إلى تأييد ذلك، بالإشارة إلى أن (بعلبك) تعني بلد بعل وهو معبود الكلدانيين، مُبينًا أن اختيار هذا اللفظ من إعجاز القرآن عند ذكر كونه أول بيت، وكذلك ردَّ المفسرُ رأي من قال بأن بكة مشتقٌ من البك وهو الازدحام[3].

ثم أسهب إبن عاشور في ذكر آراء المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، بيد أن ما يهم في هذا السياق هو مدح المكانين الذين وردا في الآية، وتعظيمهما، والثناء عليهما، وقد تجلى ذلك من خلال ذكر أن البيت الحرام هو أول بيت وُضعَ للهدى، كما تجلى ذلك من خلال وصف البيت بأنه بيتٌ مباركٌ لما فيه من زيادة الخير.

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 16/4

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 13/4

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 13/4

المبحث الثالث: المدح والثناء على الأطعمة والأشربة:

المطلب الأول: المدح والثناء على الأطعمة:

كما حرّمَ الله سبحانه وتعالى على المسلمين تناول بعض الأطعمة مثل لحم الخنزير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، مدحَ جلّ وعلا وأثنى على أطعمةً كثيرة، منها التين والزيتون، في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[2].

بدأ إبن عاشور تفسيره لهذين النوعين من الثمرات ببيان أن الكلام بالقسم يدل على أهمية الغرض، وعلى التشويق إلى المقسم عليه، ثم انتقل إلى تفسير (التين)، ومما قاله في ذلك: "وهي من أحسن الثمار صورة وطعمًا وسهولةَ مضغٍ، فحالتها دالة على دقة صنع الله، ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنّة على الناس، إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد، والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج"[3].

ثم بعد ذلك تحدثَ إبن عاشور عن الزيتون، مبينًا أن القسم بهذه الثمرة مثل القسم بثمرة التين من حيث دلالتها على صفات الله، فضلًا عن الإشارة "إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم"[4].

ولم يفت إبن عاشور الإشارة إلى اختلاف المفسرين في تفسيرهما (التين والزيتون) فذكر أن إبن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، والنخعي، وعطاء، وغيرهم قد حملوا في تفسيرهم معنى هذين الثمرتين على ظاهر اللفظ

---

[1] البقرة، 2/ 173.

[2] التين، 1/95

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 420/30

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 420/30

لما فيهما من منافع للناس، فضلًا عن الامتنان لأن الله سبحانه وتعالى خلقهما لهم، غير أن بن عاشور أشار إلى أن ذكر هذين الثمرتين في سياق واحدٍ مع طور السنين، والبلد الأمين يقتضي أن يكون لهما محملٌ يناسب ذلك، واستدل على ذلك بما روي عن إبن عباس بأن التين في الآية الكريمة قد يراد به "مسجد نوح الذي بُني على الجودي بعد الطوفان، ولعلّ تسمية هذا الجبل التين لكثرته فيه، إذ قد تسمى الأرض بما يكثر فيها من الشجر"[1].

أما الزيتون فيدل على "الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى لأنه ينبت الزيتون"[2]، وبعد أن استعرض إبن عاشور آراء المفسرين وأقوالهم في تفسير هاتين الثمرتين، ذكرَ أنه من الجائز عنده "أن يكون القسم بالتين والزيتون معنيّا بهما شجر هاتين الثمرتين، أي اكتسب نوعهما شرفًا من بين الأشجار يكون كثير منه نابتًا في هذين المكانين المقدسين"[3].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى مدح شجرة الزيتون والثناء عليها في قوله جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

ففي هذه الآية الكريمة وصفت شجرة الزيتون بأنها شجرة مباركة مما يدل على مدح الله سبحانه وتعالى لها، والثناء عليها "لما فيها من كثرة النفع، فإنه ينتفع بحبها أكلًا، وبزيتها كذلك، ويستنار بزيتها، ويدخل في أدوية

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 421/30

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 421/30

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 421/30

[4] التين، 1/95

وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها، وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾[1]، وينتفع بجودة هواء غاباتها"[2].

أما فيما يخصُّ وصف شجرة الزيتون بأنها لا شرقية ولا غربية في قوله تعالى، فقد أشار إبن عاشور في كتابه إلى اختلاف المفسرين في ذلك، مُبيّنًا أن يحتمل أن يكون معنى وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية" أنها نابتةٌ في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها، وذلك هو البلاد الشامية"[3].

ومنهم من ذهب إلى أن تفسير معنى لا شرقية ولا غربية يحتمل أن "جهة تلك الشجرة من بين ما يحف بها من شجر الزيتون موقعٌ غير شرق الشمس وغربها، وهو أن تكون متجهة إلى الجنوب، أي لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب، وذلك أنفع لحياة الشجرة وطيب ثمرتها، فبذلك يكون زيتها أجود زيت، وإذا كان أجود كان أشد وقودًا"[4].

وتعد الفاكهة من الأطعمة التي كثيراً ما وردَ ذكرها في القرآن الكريم، فهي طعام أهل الجنة، ومن ذلك ما جاء في وصف الجنة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾[5].

---

[1] المؤمنون، 20/23

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 240/18

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 241/18

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 241/18-242

[5] الرحمن، 46/55- 47- 48- 49- 50-51-52.

ومنه قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[1].

وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[2،3].

يتضح من خلال هاتين الآيتين الكريمتين أنهما تضمنتا وصفًا لحال المؤمنين في الجنة، إذ إن قوله تعالى: (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) عطفٌ على قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، وعلى هذا يصير معنى قوله تعالى: (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون)" زدناهم على ما ذُكر من النعيم والأكل والشرب الهنيء فاكهةً ولحمًا مما يشتهون من الفواكة واللحوم التي يشتهونها"[5].

واستنادًا إلى ذلك، رأى إبن عاشور أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ الفاكهة واللحم بالذكر تمهيدًا لقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[6]، ما يعني أن الله جلّ وعلا قد منح المتقين والمؤمنين في الآخرة "لذة نشوة الخمرة والمنادمة على شربها، لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم، وكان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر كسروا سورة حدتها في البطن بالشواء من اللحم"[7].

---

[1] الرحمن، 55/66- 67- 68.

[2] الطور، 52/21-22-23

[3] الطور، 52/21-22-23

[4] الطور، 52/17- 18- 19.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 27/52

[6] الطور، 52/23

[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 27/52

ويلاحظ أن إبن عاشور قد استعان على تأكيد تفسيره للآيات الكريمة بما جاء في الشعر العربي، فيذكر شعرًا للنابغة والأعشى، كما يذكر قولًا لأمرؤ القيس في المداعبة على الطعام[1] وهو:

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا ... وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمْقَسِ الْمُفَتَّلِ[2]

ومن الأطعمة التي ورد مدحها والثناء عليها الأعناب والنخيل والرمان كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[3].

في هذه الآية الكريمة ما يفيد بمنّة الله سبحانه وتعالى على المؤمنين، إذ يدلُّ قوله: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) على "خطاب المؤمنين بهذه المنّة وهذا الحكم، فهذه الجمل معترضة، وهي تعريض بتسفيه أحلام المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما منَّ الله به عليهم"[4].

ومن الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر الطعام من أعناب ونخيل وغير ذلك من نعم الله بما يشيء بمدح هذه النعم، كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5].

في هذه الآية الكريمة ذكرٌ للنعم التي أنعم الله بها على الناس، والدالة على قدرته "فِيمَا أَلْهَمَ النَّاسَ مِنَ الْعَمَلِ في الأرض بفلحها، وزرعها، وغرسها، والقيام عليها"[6].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 53/27

[2] امرؤ القيس ابن حجر الكندي، **الديوان**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، د...ط)، 11.

[3] الأنعام، 144/6

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 119/8

[5] الرعد، 4/13

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 85/13-86

وكذلك مدح الله سبحانه وتعالى الجنات بما فيها من فواكه، وذلك في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[1].

يبيّنُ الله في هاتين الآيتين الكريمتين فضله على الناس بما منّه عليهم من نعم كثيرة، وهذا ما تمثل في قوله جنات التي تعني "ما شُجر بالكرم، وأشجار الفواكة والنخيل"[2].

أما الحبُّ فيقصدُ به "ما ينبت في الزرع والذي يخرج سنابل تخرج حبوبًا مثل البُرّ والشعير والذرة والسُّلت والقطَاني مما تحصد أصوله ليدقَّ فيخرج ما فيه من الحبّ"[3]، وبناءً على ذلك، فإن قوله تعالى تضمن فائدة تجلت في "الإشارة إلى اختلاف أحوال استحصال ما ينفع الناس من أنواع النبات، فإن الجنات تستثمر وأصولها باقية، والحبوب تستثمر بعد حصد أصولها، على أن في ذلك الحصيد منافع للأنعام"[4].

وفيما يتعلق بالنخل فقد خصه الله سبحانه وتعالى "بالذكر مع تناول جنات له، لأنه أهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له، ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه، وأنيق جماله"[5]، وكذلك بيّنَ إبن عاشور في تفسيره أن الطلع هو "أول ما يظهر من ثمر التمر، وَهُوَ فِي الْكُفُرَّى، أي غلاف العنقود"[6].

---

[1] ق، 9/50

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 292/26

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 292/26

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 292/26

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 292/26

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 293/26

أما صفة النضيد الذي وصفَ الله بها الطلع، فتعني: "الْمُصَفَّفُ بعضه فوق بعض ما دام في الْكُفُرَى، فَإِذَا انْشَقَّ عنه الْكُفُرَى فَلَيْسَ بِنَضِيدٍ"[1]، وفي كلّ ذلك ما يدل على بديع صنعة الله سبحانه وتعالى، "والْمِنَّةِ بِمَحَاسِنِ مَنْظَرِ مَا أوتوه"[2].

واستنادًا إلى ما سبق من حديثٍ عن الأطعمة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز يمكن القول: إن الله جلّ وعلا قد فضّلَ على الإنسان ومنَّ عليه بما خلقه من زروعٍ ونباتٍ وفاكهةٍ وغير ذلك مما يدلُّ على بديع خلقه، وعلى ذلك، كان ذكرُ أنواع الأطعمة في الآيات مدحًا لها، وثناءً عليها، لأن الله سبحانه وتعالى قد ذكرها ليبيّن فضله على الناس، ونعمه الكثيرة عليهم، بما يستوجب حمده وشكره على ما منَّ به عليهم.

وقد أكد إبن عاشور في تفسيره على كل هذه النعم من خلال ما قدمه من تفسيرٍ للآيات التي ورد فيها ذكرٌ للنبات والأشجار والفاكهة، مُبيّنًا اختلاف أقوال المفسرين في تفسيراتهم، ولا سيما فيما يتعلق بتفسير معنى (التين والزيتون).

المطلب الثاني: المدح والثناء على الأشربة:

تعدُّ الأشربة من النعم التي سخرها الله سبحانه وتعالى لعباده، ولذا كثيراً ما ورد ذكرها في القرآن الكريم، ولا سيما الماء بوصفه أساس الحياة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، وكما في قوله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 293/26

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 293/26

[3] الأنبياء، 30/21

إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ففي هاتين الآيتين الكريمتين ما يؤكد أن الماء أصل الحياة، فبه يستخرج النبات، والنخل، والأعناب، والزيتون والرمان.

وقد جاءٌ وصفٌ للماء الذي يسقى به أصحاب اليمين، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾[2]، وُصف الماء في هذه الآية الكريمة بأنه ماءٌ مسكوب للدلالة "على جريه بقوة السكب، وهو ماء أنهار الجنة"[3].

ومن الصفات التي وصف به الماء صفة الغدق، وتعني الغزير، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[4]، فالماء المحمود في هذه الآية هو ماء الغدق، ويدل سياق الآية الكريمة على أنه محمود، إذ إن قوله جلّ وعلا: (لأسقيناهم ماء غدقًا) ما يفيد بأنه "وعدٌ بجزاء على الاستقامة في الديم جزاءً حسنًا في الدنيا يكون عنوانًا على رضى الله تعالى، وبشارة بثواب الآخرة"[5].

وكذلك وُصف الماء بأنه ماءٌ ثجاج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[6]، والثجاج يعني الماء المنصب بقوة، وقد مُدح هذا الماء بوصفه سببًا لإحياء الحب والنبات، وعلى هذا، فإن الآية بينت "حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعًا بين الامتنان، والإيماء إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث، وشكر الصانع"[7].

---

[1] الأنعام، 99/6

[2] الواقعة، 56/27- 28- 29-30-31

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 300/27

[4] الجن، 16/72

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 238/29

[6] النبأ، 14/78

[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 26/30

وقد يجيء لفظٌ يراد به الخمرة، ويستدل على ذلك من خلال السياق، كما في قوله تعالى في وصف حال المؤمنين في الجنة: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[1].

يقول إبن عاشور في تفسير المعين: "المعين: الجاري، والمراد به الخمر لكثرتها تجري في المجاري كما يجري الماء، وليست قَلِيلَةٌ عَزِيزَةٌ كَمَا هي في الدنيا"[2]، وقد استدل المفسر على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾[3].

وبناءً على ذلك، ينفي إبن عاشور أن يكون المراد هو الماء في قوله: (وكأس من معين)، " لأن الكأس ليست من آنية الماء، وإنما آنيتهما الأقداح" [4]، ويستشهد على ذلك بقوله سبحانه وتعالى في سورة الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾[5]، إذ إن من صفات الخمر أن لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون[6].

ويفسر إبن عاشور قوله تعالى: (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) بأن التصديع: "الإصابة بالصداع، وهو وجع الرأس من الخُمار الناشئ عن السكر، أي لا تصيبهم الخمر بصداع"[7]، وعلى ذلك يظهر الفرق بين الخمر الذي يسقى بها أهل الجنة والخمر في الدنيا التي تصيب من يشربها بالصداع بخلاف ما هي عليها خمر الجنة التي لا تسبب الصداع.

---

[1] الواقعة، 15/56- 16- 17- 18- 19

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 294/27

[3] محمد، 15/47

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 294/27

[5] محمد، 15/47

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 294/27

[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 294/27

ومن الآيات التي جاء فيها وصف الخمر قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

فالرحيق هو اسم من أسماء الخمر، ويعني الخمر الصافية الطيبة، والمختوم هو المسدود إناؤه، والختام "اسم للطين الذي يختم به، وكانوا طين الختام على محل السداد من القارورة، أو الباطية، أو الدّن للخمر لمنع تخلل الهواء إليها، وذلك أصلح لاختمارها، وزيادة صفائها، وحفظ رائحتها، وجعل ختام خمر الجنة بعجين المسك عوضًا عن طين الختم"[2].

ومن الآيات الكريمة التي جُمع فيها أنواعٌ من الأشربة قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[3].

تتضمن هذه الآية ماءً غير آسن، وهو الماء الصافي، وأنهارًا من لبن، وخمر، وعسل، وقد رأى إبن عاشور أن ذكر الأنهار في هذه الآية جاء على طريقة التشبيه البليغ، "أي مماثلة للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة، فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا"[4].

---

[1] الصافات، 37/45-46-47

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 30/205-206

[3] محمد، 47/15

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 26/96

وذهب إبن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآية مُبينًا ذكر هذه الأصناف الخمسة من الأشربة بأن هذه الأصناف "كانت من أفضل ما يتنافسون فيه، ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها؟ فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة؟ وتناول هذه الأصناف من التفكه الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية"[1].

ويناء على ذلك، يظهر بأن مدحَ الله سبحانه وتعالى للأشربة والثناء عليها تضمن نوعين، هما: مدحُ الماء، ومدح الخمر، فالأولُ مُدحَ لأنه مصدر حياة الكائنات، وفيه دلالة على فضل الله سبحانه وتعالى على المخلوقات، أما مدحُ الخمر فجاء في سياق الحديث عن أهل الجنة، فهي خمر تختلفُ عما هي عليه في الحياة الدنيا في أنها لذة للشاربين الذين لا يمكن أن يصيبهم الصداع بعد شربها، وهذا ما يدل على أنها خمر محمودة، ينالها المتقون والمؤمنون.

المبحث الرابع: منهج إبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء:

يعد تفسير إبن عاشور من التفاسير العصرية، التي تجمع بين التفسير بالرواية: أي تفسير القرآن بالقرآن والقرآن بالسنة والقرآن بما جاء عن الصحابة والتابعين، والتفسير بالدراية بالاعتماد على اللغة والإعراب وأقوال المؤرخين والحقائق الكونية، وقد تناول إبن عاشور آيات المدح والثناء وفقاً لما يلي:

المطلب الأول: الاهتمام بالمأثور:

إستدل إبن عاشور بما جاء من آيات في القرآن الكريم في تفصيل المجمل لما استعرضه من آيات المدح والثناء، وبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما أُثِرَ عن الصحابة والتابعين، ولكن ينبغي التنويه إلا أنه لم يتوسع فيه كما توسع القرطبي في ذلك، ومن الأمثلة التي وردت في تفسير التحرير والتنوير:

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 96/26

1 ـ قوله تعالى في الثناء على بقاع ومساجد مخصوصة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[1].

فقد احتج بما في السنة النبوية على أفضلية هذه المساجد، يقول: "لاَ تسافر المرأة يومين إلا معها زوجها أَوْ ذُو مَحْرَمٍ، وَلاَ صوم فِي يومين الفِطْرِ وَالأَضْحَى، وَلاَ صلاة بَعْدَ صلاتين بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب، وَلاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ، إِلَّا إِلَى ثلاثة مساجد مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأقصى، وَمَسْجِدِي"[2].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على الأطعمة المباركة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[3].

فقد نقل ما أثر عن الصحابة والتابعين في توجيه وتفسير معنى التين والزيتون، يقول: "والزيتون يطلق على الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى لأنه ينبت الزيتون، وروي هذا عن إبن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي"[4].

المطلب الثاني: الاهتمام بالقراءات:

إهتم إبن عاشور في تناول آيات المدح والثناء بالقراءات المتواترة، لأثرها في توجيه المعنى ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى أَنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[5].

---

[1] الإسراء، 1/17

[2] البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، .باب مسجد بيت المقدس، رقم الحديث: 1197، 91/2. و ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 15/15

[3] التين، 1/95

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 41/30

[5] مريم، 51/19

يقف إبن عاشور على قراءة (مخلصاً) عند القراء السبعة، يقول: وقرأ الجمهور مخلصا بكسر اللام من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته، والإخلاص في أمر ما: الإتيان به غير مشوب بتقصير ولا تفريط ولا هوادة، مشتق من الخلوص، وهو التمحض وعدم الخلط، والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام، وقرأه حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف بفتح اللام من أخلصه، إذا اصطفاه"[1].

المطلب الثالث: الاهتمام باللغة:

إعتنى إبن عاشور بالمعاني اللغوية للكلمات، وشرح الغريب، لكنه لم يتوسع كما القرطبي، وكان يستشهد بالشعر العربي، وكان من منهجه النقد مستعيناً بثقافته الواسعة، ومن الأمثلة:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على التوراة والإنجيل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[2].

جزم إبن عاشور منذ البداية أن التوراة والإنجيل ليسا اسمين عربيين، ونقدَ الروايات اللغوية في ذلك لمن حاول اشتقاق أصل لهما من العربية، مؤكداً على أصلهما العبراني، يقول: والتوراة اسم للكتاب المنزل على موسى عليه السلام، وهو اسم عبراني أصله طوراً بمعنى الهدى، والظاهر أنه اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى، ومن أهل اللغة والتفسير من حاولوا توجيها لاشتقاقه اشتقاقا عربيا، فقالوا: إنه مشتق من الوري وهو الوقد، بوزن تفعلة أو فوعلة، وربما أقدمهم على ذلك أمران: أحدهما دخول التعريف عليه، وهو لا يدخل على الأسماء العجمية، وأجيب بأن لا مانع من دخولها على المعرب كما قالوا: الإسكندرية، وهذا جواب

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 126/16

[2] آل عمران، 3/3

غير صحيح لأن الإسكندرية وزن عربي إذ هو نسب إلى إسكندر، فالوجه في الجواب أنه إنما ألزم التعريف لأنه معرب عن اسم بمعنى الوصف اسم علم فلما عربوه ألزموه اللام لذلك، أما الثاني أنها كتبت في المصحف بالياء، وهذا لم يذكروه في توجيه كونه عربيا، وسبب كتابته كذلك الإشارة إلى لغة إمالته"[1].

ويقول عن الإنجيل: "وأما الإنجيل فاسم للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه، وهو اسم معرب قيل من الرومية وأصله (إثانجيليوم) أي الخبر الطيب، فمدلوله مدلول اسم الجنس، ولذلك أدخلوا عليه كلمة التعريف في اللغة الرومية، فلما عربه العرب أدخلوا عليه حرف التعريف، وقد حاول بعض أهل اللغة والتفسير جعله مشتقاً من النجل وهو الماء الذي يخرج من الأرض، وذلك تعسف أيضاً، وهمزة الإنجيل مكسورة في الأشهر ليجري على وزن الأسماء العربية لأن إفعيلا موجود بقلة مثل إبزيم، وربما نطق به بفتح الهمزة، وذلك لا نظير له في العربية"[2].

المطلب الرابع: الاهتمام بالنحو والبلاغة:

إعتنى إبن عاشور بالنظم القرآني أعظم العناية، لذلك اهتم بعلاقة المفردات مع بعضها داخل النظم، كما اهتم بالسياق والتركيب من حيث التقديم والتأخير والفصل والوصل، واهتم بأدوات علم المعاني بين البلاغيين والنحويين، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على نفسه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[3].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 148/3

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 149/3

[3] سبأ، 1/34

يقول إبن عاشور في مناسبة هذا الافتتاح وفي الكلام على جملة الحمد وسبب تعريفها ونوع اللام في (لله): "افتتحت السورة ب الحمد لله للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل تفرده بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له والإخبار باختصاصه به، فجملة الحمد لله هنا يجوز كونها إخباراً بأن جنس الحمد مستحق لله تعالى فتكون اللام في قوله: لله لام الملك، ويجوز أن تكون إنشاء ثناء على الله على وجه تعليم الناس أن يخصوه بالحمد فتكون اللام للتبيين لأن معنى الكلام: أحمد الله، واقتضاء صلة الموصول أن ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى يجعل هذه الصلة صالحة لتكون علة لإنشاء الثناء عليه لأن ملكه لما في السماوات وما في الأرض ملك حقيقي لأن سببه إيجاد تلك المملوكات وذلك الإيجاد عمل جميل يستحق صاحبه الحمد"[1].

المطلب الخامس: الاهتمام بالأحداث التاريخية والحقائق العلمية:

تجلى هذا الاهتمام في بيان الإعجاز القرآني وهو يتناول آيات المدح والثناء، فاستعمل إبن عاشور ما وصل إليه علم الفلك في عصره من اكتشافات، في الكشف عن بعض المعاني القرآنية، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ قوله تعالى في الثناء على شهر رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

يتحدث إبن عاشور عن معنى الشهر مستنداً إلى ما جاء في علم الهيئة، يقول: "والشهر جزء من اثني عشر جزءًا من تقسيم السنة قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 135/22

[2] البقرة، 185/2

والأرض﴾[1]، والشهر يبتدئ من ظهور الهلال إلى المحاق ثم ظهور الهلال مرة أخرى، وهو مشتق من الشهرة لأن الهلال يظهر لهم فيشهرونه ليراه الناس فيثبت الشهر عندهم"[2].

2 ـ قوله تعالى في الثناء على المسجد الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

أشار إبن عاشور إلى ما في العدول القرآني إلى كلمة (بكة) بإبدال الميم باء من إعجاز علمي، يقول: "والظاهر عندي أن بكة اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علما على المكان الذي عينه لسكنى ولده بنية أن يكون بلدا، فيكون أصله من اللغة الكلدانية، لغة إبراهيم، ألا ترى أنهم سموا مدينة (بعلبك) أي بلد بعل وهو معبود الكلدانيين، ومن إعجاز القرآن اختيار هذا اللفظ عند ذكر كونه أول بيت"[4].

---

[1] التوبة، 36/9.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 173/2.

[3] آل عمران، 96/3

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 13/4

الفصل الثالث: مقارنة بين منهجي القرطبي وإبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء

سوف نقف في هذا الفصل للمقارنة بين منهجي الإمام القرطبي والطاهر إبن عاشور، لاستعراض مواضع الائتلاف والاختلاف عند كل منهما في تناوله لآيات المدح والثناء من حيث المعاني، ثم من حيث الأساليب.

المبحث الأول: مواضع الائتلاف والأختلاف في تفسير آيات المدح والثناء بين القرطبي وإبن عاشور:

المطلب الأول: مواضع الائتلاف في الثناء على الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

تناولت هذه الآية الثناء على الله تعالى بصفة (الغني)، وقد اتفق كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور على أن العباد مجبولون على الضعف، فقراء محتاجون إليه في كل أحوالهم، يقول القرطبي "المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم، الزمخشري: "فإن قلت لمَ عرَّف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر"[2].

ويقول إبن عاشور: "وقبل أن يبيّن للمشركين أنه جلّ وعلا غنيٌّ "وجهَ إليهم إعلاماً بأنهم الفقراء إلى الله لأن ذلك أدخلُ للذلة على عظمتهم من الشعور بأن الله غني عنهم"[3].

كما نبَّه كل منهما على أن التكميل الحاصل بصفة الحميد في فاصلة الآية، لنكتة هي الاحتراس من مظنة العبد أن غنى الله تعالى عن عبادته يُعذَر بها عن تأدية فرائضه، فبين سبحانه أنه الحقيق بالحمد على

---

[1] فاطر، 15/35

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 337/14.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 285/22.

إنعامه والعبادة لأنه الإله الحق، يقول القرطبي: ذكر "الحميد" ليدل به على أنه الغنيُّ النافعُ بغناه خلقَه، الجوادُ المنعم عليهم، المستحقُّ بإنعامه عليهم أن يحمدوه"[1].

ويقول إبن عاشور: "لكي لا يتوهم المشركون بأنهم معذورون عن عبادته سبحانه وتعالى لكونه غني عن عبادتهم، لذلك نبّهَ بأنه جلّ وعلا موصوفٌ بالحمد لمن عبده"[2].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

اتفق الإمامان القرطبي وإبن عاشور على أن هذه الآية جاءت في سياق التعريض والتهديد، التعريض بأنه لا يعجل بالعقوبة على عباده، ففيها بشارة بالفضل للمؤمنين، ووعيد بالإمهال للعصاة والكافرين، لكي يتوبوا يعودوا، وكذلك اتفقا أنها حملت نذير الإمهال بالعقوبة إلى يوم القيامة اعتماداً على ما بعدها (ليجمعنكم إلى يوم القيامة)، يقول القرطبي: كتب على نفسه الرحمة "أي وعد بها فضلًا منه وكرماً فلذلك أمهل، وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده، وارتفاع الوسائط دونه، ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة"[4]، ويقول إبن عاشور: "فكان قوله: كتب على نفسه الرحمة جوابا لكلا الفريقين بأنه تفضل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقتة وهي رحمة الإمهال والإملاء

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 337/14.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 286/22.
[3] الأنعام، 12/6
[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 395/6.

للعصاة والضالين، والثالث: أن ما في قوله: قل لله من التمهيد لما في جملة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه من الوعيد والوعد، ذكرت رحمة الله تعريضاً ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين"[1].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[2].

لا يختلف الإمامان القرطبي وإبن عاشور في أن الآيات هي في ثناء من الله تعالى على نبي الله عيسى عليه السلام وخصاله الحميدة التي منها البركة، والبر بوالدته، وعدم التكبر والتجبر، إلا أن إبن عاشور أشار إلى سبب وصفه بالبر وهو ضعف تلك الخصلة في بني إسرائيل يومئذ، ولم يشر القرطبي إلى ذلك بل بيَّن أن قوله (بوالدتي) إدراك من عيسى عليه السلام أنه خلق بقدرة الله بلا أب، يقول القرطبي: "(وجعلني مباركا) أي: ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له، التستري: وجعلني آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف، (وبرا بوالدتي) قال إبن عباس: لما قال "وبرا بوالدتي" ولم يقل بوالدي علم أنه شيء من جهة الله تعالى، (ولم يجعلني جبارا): أي متعظماً متكبراً يقتل ويضرب عند الغضب، وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقًا قط، (شقيًا): أي خائبًا من الخير"[3]، ويقول إبن عاشور: أرسله رحمة لبني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم وَلِيَدْعُوَهُمْ إِلَى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وَغَيَّرُوا مِنْ دِينِهِمْ، فَهَذِهِ أعظم بَرَكَةٍ تقارنه، وقد خصه الله تعالى بذلك بين قومه لأن بر الوالدين كان ضعيفًا في بني إسرائيل يومئذ".

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 151/7.

[2] مريم، 30/19 – 31- 32- 33

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 202/11.

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[1].

وقف الإمامان القرطبي وإبن عاشور على معنى الآية، ليتفقا على أن وصف القرآن العظيم بالفرقان لكونه فارقاً بين الحق والباطل، إلا أن القرطبي أفاد بأن الفرقان قد يطلق على التوراة والإنجيل أيضاً، ولم يذكر إبن عاشور ذلك، يقول القرطبي: و"الفرقان" القرآن، وقيل: إنه اسم لكل منزل، كما قال: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾[2].

وفي تسميته فرقانًا وجهان: أحدهما- لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، الثاني- لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام، حكاه النقاش"[3].

ويقول إبن عاشور: "وسمي القرآن بالفرقان لأنه فرّق بين الحق والباطل" لما بيّنَ من دلائل الحق ودحض الباطل"[4].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[5].

اهتم كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور ببيان المعنى اللغوي للتوراة والإنجيل، إلا أن القرطبي كان أكثر توسعاً في التفتيش والتقميش عن أصل الكلمتين دون أن يجزم بشيء من معانيها أو ينقد ما ورد عن أئمة اللغة، يقول القرطبي عن التوراة: "والتوراة معناها الضياء والنور، مشتقة من ورى الزند ووري لغتان إذا خرجت ناره، وأصلها تورية على وزن تفعلة، وقيل: التوراة مأخوذة من التورية، وهي التعريض بالشيء والكتمان لغيره،

---

[1] الفرقان، 1/25

[2] الأنبياء، 48/21.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 1/13.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 217/18.

[5] آل عمران، 3/3

فكأن أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح، وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السريانية، "ويقول القرطبي عن الإنجيل: "والإنجيل: إفعيل من النجل وهو الأصل، ويجمع على أناجيل وتوراة على توار، فالإنجيل أصل لعلوم وحكم، ويقال: لعن الله ناجليه، يعني والديه، إذ كانا أصله، وقيل: هو من نجلت الشيء إذا استخرجته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، ومنه سمي الولد والنسل نجلا لخروجه، والنجل الماء الذي يخرج من النز، واستنجلت الأرض، وبها نجال إذا خرج منها الماء، فسمي الإنجيل به، لأن الله تعالى أخرج به دارسا من الحق عافيا، وقيل: هو من النجل في العين (بالتحريك) وهو سعتها، وطعنة نجلاء، فسمي الإنجيل بذلك، لأنه أصل أخرجه لهم ووسعه عليهم ونوراً وضياءً، وقيل: الإنجيل بالسريانية إنكليون حكاه الثعلبي"[1].

بينما نجد أن إبن عاشور يجزم بأن التوراة اسم عبراني، وأن اللغويين حاولوا أن يتمحلوا ويتكلفوا للكلمة أصلاً عربياً بجعل اشتقاقه من الوري، يقول: "اسم عبراني أصله طُورَا بمعنى الهدى، والظاهر أنه اسمٌ للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور، لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، ومن أهل اللغة والتفسير من حاولوا توجيها لاشتقاقه اشتقاقا عربيا، فقالوا: إن مشتق من الوري وهو الوقد، بوزن تفعلة أو فوعلة"[2]، أما فيما يخص الإنجيل فقد نقل إبن عاشور ما ذكره اللغويين والمفسرين ثم انتقد عليهم هذا التعسف في اشتقاق اسم له من العربية مؤكداً على أن وزنه لا نظير له في أوزان العربية، يقول: "وقد حاول بعض أهل اللغة والتفسير جعله مشتقا من النجل وهو الماء الذي يخرج من الأرض، وذلك تعسف أيضا، وهمزة الإنجيل مكسورة في الأشهر ليجري على وزن الأسماء العربية، لأن إفعيلا موجود بقلة مثل إبزيم، وربما نطق به بفتح الهمزة، وذلك لا نظير له في العربية"[3].

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 6/4.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 148/3.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 149/3.

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1] .

توافق كل من القرطبي وإبن عاشور حول أن المقصود بالعلماء في الآية هم طلاب العلم الشرعي الذين يعرفون الله حق معرفته ويخافونه، غير أن القرطبي ركز على ثواب طالب العلم بما ورد في الآثار الصحيحة، وحذر من عواقب تعلم العلم مراءاة ومحاباة وغشا وطمعاً بما في أيدي الناس طلباً للدنيا وشهواتها، يقول: "يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، وأسند الدارمي أبو محمد عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية- إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضيه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير" الخبر مرسل، قال الدارمي: وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد إبن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد أنه سمع تبيعا يحدث عن كعب قال: إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل، ويتفقهون لغير العبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن، قلوبهم أمر من الصبر، فبي يغترون، وإياي يخادعون، فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران"، أما إبن عاشور فقد ركز على معنى الخشية، وأن العلم الشرعي يورث الخشية، وأن العلماء بالعلوم الدنيوية إذا اقتدوا بعلماء الشريعة من خوف الله ومراقبته فيلحقون بهم، يقول: وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء، قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد "والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة"[2].

[1] فاطر، 28/35+

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 305/2.

المطلب الثاني: مواضع الائتلاف في الثناء على الأزمنة والأمكنة المباركة:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

حاول الإمامان القرطبي وإبن عاشور تبيين اشتقاق رمضان اللغوي والصرفي، وكذلك أحكام الصيام الفقهية، إلا أن القرطبي توسع في تفسيرها كثيراً توسعاً بلغ (21) مسألة، في سبب ثناء الله عليه، والآثار الواردة في فضله، وفي رؤية الهلال وغيرها، يقول القرطبي: "ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش، والرمضاء (ممدودة): شدة الحر، فرمضان- فيما ذكروا- وافق شدة الحر، فهو مأخوذ من الرمضاء.

قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضاء، يقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمي بذلك"[2].

ويقول إبن عاشور: "ورمضان علم وليس منقولا إذ لم يسمع مصدر على وزن الفعلان من رمض بكسر الميم إذا احترق لأن الفعلان، يدل على الاضطراب ولا معنى له هنا، وقيل هو منقول عن المصدر، ورمضان علم على الشهر التاسع من أشهر السنة العربية القمرية المفتتحة بالمحرم فقد كان العرب يفتتحون أشهر العام بالمحرم لأن نهاية العام عندهم هي انقضاء الحج ومدة الرجوع إلى آفاقهم، ألا ترى أن لبيدا جعل جمادى الثانية وهو نهاية فصل الشتاء شهرا سادسا إذ قال:

---

[1] البقرة، 185/2

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 290/2.

حتى إذا سلخا جمادى ستة ... جزءا فطال صيامه وصيامها

ورمضان ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون لأنه مشتق من الرمضاء وهي الحرارة لأن رمضان أول أشهر الحرارة بناء على ما كان من النسيء في السنة عند العرب"[1].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2].

اتفق الإمامان القرطبي وإبن عاشور على اقتران هذا اليوم بحادثة معينة وهي قصة تعدي بني إسرائيل حدود الله تعالى في هذا اليوم وتجاوز من أمرهم به من النهي عن صيد الحيتان، وهو يوم معظم عند الله تعالى لذلك نهى فيه عن الصيد، إلا أن القرطبي اختلف مع إبن عاشور في بيان معنى السبت، فالسبت عند القرطبي القطع لأنه يوم راحة ودعة، والسبت عند إبن عاشور من سبت اليهودي بمعنى احترم وعظَّم، يقول القرطبي: "(في السبت): معناه في يوم السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت، والأول قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال، وروى أشهب عن مالك قال: زعم إبن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطا ويضع فيه وهقة وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لا يبتلى، حتى كثر صيد الحوت ومشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده، فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهي واعتزلت، ويقال: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة".

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 173/2.

[2] البقرة، 2 /65.

ويوضح لنا القرطبي المعنى اللغوي للسبت، يقول: "والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع، فقيل: إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها، وقيل: هو مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدعة"[1]. ويقول إبن عاشور في معناه: "والسبت مصدر سبت اليهودي من باب ضرب ونصر بمعنى احترم السبت وعظمه"[2].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[3].

أجمع كل من القرطبي وإبن عاشور على أن إقسام الله عز وجل بالعصر لميزةٍ خاصة، إذ يذكّر بقدرة الله وعظمته في هذا العالم، بما يجري فيه من تغاير الليل والنهار واختلاف الأحوال، يقول القرطبي: "أقسم الله به عز وجل، لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع"[4]. ويقول إبن عاشور: "فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة، أو عصرٍ معين مبارك"[5].

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[6].

يتفق كلٌّ من القرطبي وإبن عاشور على أنَّ لهذه الليلة من الشرف والفضل ما لها، وأن الله ميزها من بين الليالي، وأن العمل فيها خير من ألف شهر مما سواها، يقول القرطبي: "وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، والله أعلم، وقال

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 439/1.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 544/1

[3] العصر، 103 /1- 2

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 179/20.

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 528/30

[6] القدر، 97 /1- 2- 3- 4- 5

كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر"[1]، ويقول إبن عاشور: "فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى"[2].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[3].

وقف كل من القرطبي وإبن عاشور عند هذه الآية الكريمة، واتفقا على أن الطور هو طور سيناء، اسم الجبل الذي ناجى الله تعالى عنده نبيه موسى عليه السلام، واتفقا أيضاً أنه أثنى على الطور بالقسم به، لأنه الموضع الشريف الذي كانت فيه هذه الحادثة المباركة العظيمة، يقول القرطبي: "قوله تعالى: (والطور) الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى، أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة، وروى إسماعيل إبن إسحاق قال: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعة أجبل من جبال الجنة، وأربعة أنهار من أنهار الجنة، وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة) قيل: فما الأجبل؟ قال: (جبل أحد يحبنا ونحبه، والطور جبل من جبال الجنة، ولبنان جبل من جبال الجنة، والجودي جبل من جبال الجنة (وذكر الحديث)"[4]، ويقول إبن عاشور: "والطور: الجبل باللغة السريانية قاله مجاهد، وأُدخل في العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن، وغُلّب علمًا على طور سينا الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 231/20.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 458/30

[3] الطور، 52 /1- 2- 3- 4- 5

[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 55/17.

عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة، فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه، ونزول الألواح على موسى"[1].

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[2].

أسهب كل من القرطبي وإبن عاشور في الوقوف على هذه الآية، وبينا أشياء تتعلق بتاريخ كل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وساقا الأحاديث والآثار النبوية التي تتعلق بتعظيم هذين المكانين، وكذلك اتفقا على أشياء في الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِين﴾[3]، فقصا أخباراً تتعلق بشرف هذا المكان الذي وصفه الله تعالى بالبركة، وخصه بالتعظيم، وتكلما على مقام إبراهيم، يقول القرطبي: "إن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك، فتأمله هناك فلا معنى للإعادة.

ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم:"لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس"، أخرجه مالك من حديث أبي هريرة، وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد، (إلى المسجد الأقصى) سمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ثم قال: (الذي باركنا حوله) قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار.

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 37/27

[2] الإسراء، 1/17

[3] آل عمران، 96/3

وقيل: بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين، وبهذا جعله مقدسا"[1]، ويقول القرطبي في موضع آخر: "في معنى مقام إبراهيم والأحكام الفقهية الخاصة بالحرم يقول: "وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله، فذهب إلى أن من آياته الصفا والمروة والركن والمقام، والباقون بالجمع، أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها"[2].

ويقول إبن عاشور: "والمسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيت المقدس الكائن بإيلياء، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام، والأقصى: أي الأبعد، والمراد بعده عن مكة بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصفٌ كاشفٌ اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقًا للعادة، لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة"[3]، ويقول في موضع آخر: "جعل له بركة، وهي زيادة في الخير، أي جعلت البركة فيه بجعل الله تعالى، إذ قدّرَ أن يكون داخله مثابًا وَمُحَصَّلًا على مبلغ نِيَّتِهِ، وَقَدَّرَ لمجاوريه وسكان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثَّوَابِ وَرَفَاهِيَةِ الْحَالِ، وَأَمَرَ بجعل داخله آمنًا، وَقَدَّرَ ذَلِكَ بين الناس فكان ذلك كله بركة"[4].

المطلب الثالث: مواضع الائتلاف في الثناء على الأطعمة والأشربة المباركة:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[5].

اتفق كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور على أن الله تعالى أقسم بهاتين الثمرتين لما فيها من منافع عظيمة، والقسم يدل على شرف المقسم به، وزاد القرطبي تأويلات نقلها عن أهل التفسير، ثم وجه القول

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 211/10 ـ 212.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 140/4.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 14/15

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 16/4

[5] التين، 1/95

الأصح منها وهو أن المراد بها الثمار المعروفة، وكذلك فعل إبن عاشور الذي رأى أنه لا مانع أن يقصد بالثمرتين الأرض التي تنبت عليهما هاتين الشجرتين، يقول القرطبي: "وروي عن إبن عباس أيضا: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي، والزيتون: مسجد بيت المقدس.

وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى، إبن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس.

وقال كعب الأحبار وقتادة أيضا وعكرمة وإبن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس. وهذا اختيار الطبري"وأصح هذه الأقوال الأول، لأنه الحقيقة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل، وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان ستر آدم في الجنة، لقوله تعالى: ﴿يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[1]، وكان ورق التين. وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه، فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجني، على قدر المضغة، وأقسم بالزيتون لأنه مثَّل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾[2]، وهو أكثر أُدم أهل الشام والمغرب، يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة"[3].

ويقول إبن عاشور: "وهي من أحسن الثمار صورة وطعمًا وسهولةَ مضغٍ، فحالتها دالة على دقة صنع الله، ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات،

---

[1] الأعراف، 22/7.

[2] النور، 35/24.

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 111/20.

مع الإيذان بالمنّة على الناس، إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد، والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج"[1].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

لا خلاف في هذا الموضع بين القرطبي وإبن عاشور على أن الله مدح هذه الشجرة المباركة وثمرتها لما فيها من فوائد جمة عظيمة، واستبعد القرطبي التمحلات التي وردت عن أهل التفسير بأن المراد بها شجرة الأنبياء، يقول: "ويريد بها شجرة الزيتون، وأفردها بالذكر لعظيم منافعها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلة تعاهدها بالسقي والحفر وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار"[3]. ويقول في موضع آخر: "ويقول إبن عاشور: "لما فيها من كثرة النفع، فإنه ينتفع بحبها أكلًا، وبزيتها كذلك، ويستنار بزيتها، ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها، وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾[4]، وينتفع بجودة هواء غاباتها"[5].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 420/30

[2] التين، 1/95

[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 114/12.

[4] المؤمنون، 20/23

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 240/18

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

اتفق كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور أن الآية في وصف حال أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وفي مدح شرابهم الذي يشبه شراب أهل الدنيا، لكنه يختلف في الطعم واللون والرائحة والمآل (الختام)، يقول القرطبي: "(يسقون من رحيق) أي من شراب لاشيء فيه.

قاله الأخفش والزجاج، وقيل الرحيق الخمر الصافية، وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر، والمعنى واحد، الخليل: أقصى الخمر وأجودها وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة (مختوم ختامه مسك) قال مجاهد: يختم به آخر جرعة، وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتم المسك.

وكان إبن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه، وهو حسن، لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك"[2]، ويقول إبن عاشور: "والختام" اسم للطين الذي يختم به، وكانوا طين الختام على محل السداد من القارورة، أو الباطية، أو الدّن للخمر لمنع تخلل الهواء إليها، وذلك أصلح لاختمارها، وزيادة صفائها، وحفظ رائحتها، وجعل ختام خمر الجنة بعجين المسك عوضًا عن طين الختم"[3].

---

[1] الصافات، 37/45-46-47

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 265/19.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 30/205-206

المبحث الثاني: مواضع الاختلاف في تفسير آيات المدح والثناء بين القرطبي وإبن عاشور

لا بدَّ من الإشارة أولاً إلى أن القرطبي وإبن عاشور نهلا من معينٍ واحد في تفسير القرآن الكريم، هو معين اللغة العربية، التي هي شرط أساسي لأي مفسر، فمن لا يمتلك معرفة اللغة وأسرارها لا يحق له الكلام في تفسير كتاب الله، وإلا ستكون العاقبة وضع المعاني في غير موضعها وقد يقود ذلك إلى الكذب نعوذ بالله من ذلك، ومن أدوات المفسر أيضاً أن يكون عالماً بأسباب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ والخاص والعام وما إلى ذلك من علوم القرآن.

لذلك فإن اختلاف الإمامين حول آية لا يعني اختلافهما حول معناها العام، لكن ربما وقع الخلاف في جزء منها أو كلمة، أو تفصيل زائد وهذا ما أردنا توضيحه هنا.

المطلب الأول: في الثناء على الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1].

لا يختلف الإمامان القرطبي وإبن عاشور أن هذه الآية من أعظم آيات القرآن الكريم، لما تضمنته من أعلى درجات ثناء الله تعالى على نفسه، فقد كرر الله تعالى الثناء على نفسه فيها ثمانية عشر مرة بذكر اسمه فيها ما بين مضمر وظاهر، لكنهما اختلفا ما المراد بصفة الحي؟ فنقل القرطبي أقوالاً تدل على أنه اسم الله الأعظم، كأنما مال إلى هذا الرأي دون أن يصرح به، ثم عرج على بقية الأقوال التي تقول إن معناه الباقي وأنه الموصوف بالحياة، يقول القرطبي: "والحي" اسم من أسمائه الحسنى يسمى به، ويقال: إنه اسم الله تعالى

[1] البقرة، 255/2

الأعظم، ويقال: إن عيسى إبن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء: ياحي يا قيوم، ويقال: إن آصف بن برخيا لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله ياحي يا قيوم. ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم: أيا هيا شرا هيا، يعني يا حي يا قيوم، ويقال: هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به.

قال الطبري عن قوم: إنه يقال حي قيوم كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه.

وقيل: سمى نفسه حيًا لصرفه الأمور مصاريفها وتقديره الأشياء مقاديرها، وقال قتادة: الحي الذي لا يموت، وقال السدي: المراد بالحي الباقي"[1]، بينما ركز إبن عاشور على صفة الحياة واستخرج نكتة هي أنه سبحانه وتعالى حي بالإدراك والفعل، وبذلك تبطل حجة المشركين بعبادة آلهتهم لانتفاء الحياة عنهم، يقول: "والحي في كلام العرب من قامت به الحياة، وهي صفة بها الإدراك والتصرف، أعني كمال الوجود المتعارف، فهي في المخلوقات بانبثاث الروح واستقامة جريان الدم في الشرايين، وبالنسبة إلى الخالق ما يقارب أثر صفة الحياة فينا، أعني انتفاء الجمادية مع التنزيه عن عوارض المخلوقات، وفسرها المتكلمون بأنها «صفة تصحح لمن قامت به الإدراك والفعل"[2]، ثم يقول: "إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصفَ الإلهية لانتفاء الحياة عنهم"[3].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[4].

---

[1] محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية ط2، 1964م)، 271/3.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/3.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 17/3.

[4] البقرة، 34/2

اختلف كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور حول بعض الأمور في الآية، ففي حين اتفقا على أن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم هو لظهور مزيته عليهم، إلا أن القرطبي رأى أن طاعة الملائكة لله تعالى في أمر السجود هي غريزة مركبة فيهم، يقول: "قول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وقال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم، فقال عز وجل:"اسجدوا لآدم"[1].

بينما رأى إبن عاشور أن هذه الطاعة والمبادرة للسجود بسرعة هي من خصال الملائكة المحمودة يقول: "وفي الآية إشارة إلى أن" الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول"[2].

الموضع الثالث: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

اتفق كل من الإمامين القرطبي وإبن عاشور على أن الآية في صحابة رسول الله صلى الله عليهم وسلم، لكن نقل القرطبي أنها في أهل الحديبية خاصة، ولم يمنع من دخول جملة المؤمنين فيها، يقول: "وكون الصفات في جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأشبه، قال إبن عباس: أهل الحديبية أشداء على الكفار،

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 263/1.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 421/1.
[3] الفتح، 48/ 29.

أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته. وقيل: المراد ب "الذين معه" جميع المؤمنين، "رحماء بينهم" أي يرحم بعضهم بعضا. وقيل: متعاطفون متوادون"[1].

بينما ذهب إبن عاشور إلى أنها في صحابة رسول الله عامة، وجزم أنها ليست خاصة بأهل الحديبية، يقول: "والمقصود الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى معه: المصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد كقوله تعالى: وقال الله إني معكم، والمراد: أصحابه كلهم لا خصوص أهل الحديبية"[2].

المطلب الثاني: في الثناء على الأزمنة والأمكنة المباركة، والأطعمة والأشربة المباركة:

لم نجد هنا مواضع اختلاف بين الإمامين القرطبي وإبن عاشور في الآيات التي وقفنا على تحليلها في الفصلين الأول والثاني.

المبحث الثاني: أهم النتائج والأستنتاجات الناتجة من الدراسة المقارنة للإمامين القرطبي وإبن عاشور

المطلب الأول: النتائج المستخلصة من مواضع الائتلاف ومواضع الاختلاف:

تبدى عند إبن عاشور أن مدح الله سبحانه وتعالى لذاته في كتابه العزيز قد جاء لبيان وحدانيته التي تجلت في صفاته عز وجل، فهو حيٌّ، قيوم، خالقُ كل شيء، قادرٌ، حكيم، عليم، رحيم وغير ذلك من الصفات التي تستوجب عبادته، وتعظيمه، وكذلك عند القرطبي إلا أنه أضاف أن الثناء جاء في معرض إظهار قدرته وسعة رحمته.

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** =تفسير القرطبي، 292/16.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 202/26.

أفاد المدح والثناء على الملائكة عند إبن عاشور في الدلالة على ما يتسمون به من فضائل، فضلًا عن إطاعتهم لله سبحانه وتعالى، بينما أكد القرطبي أن الملائكة لهم شرف وفضل، لكن طاعتهم لله عز وجل هو شيء مركَّب في أصل خلقتهم مجبولون عليه.

أفاد مدحُ الرسل عليهم الصلاة والسلام عند إبن عاشور في بيان خصالهم، وصفاتهم، وفضائلهم، ودَورهم في هداية الأقوام التي بعثوا إليها، ولم يخرج القرطبي عن هذه المعاني التي ذكرها إبن عاشور.

نبه القرطبي وإبن عاشور أن ثناء الله تعالى على الكتب السماوية تعظيماً لما فيها، فهي نور وهدى، فيها تفصيل الشريعة وبيان الأحكام، وعلم الحلال والحرام، كما أن فيها دليلاً على استمرار الهداية في كل زمان ومكان.

أظهر القرطبي وإبن عاشور أن مدح الله تعالى لطوائف وجماعات من عباده الصالحين في كتابه العزيز جاء لنتعلم منهم الثبات على الإيمان وحمل الأمانة والوفاء والصبر والمسارعة في الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك كي يتحلى المؤمنون بالمعاني الأخلاقية السامية والصفات النبيلة التي يتمُّ بها فلاحه في الدينا والآخرة.

جاء مدح الأزمنة والثناء عليها عند القرطبي وإبن عاشور لتأكيد عظمة الشهور مثل شهر رمضان، والأيام مثل يوم الجمعة، والأوقات مثل الفجر، والضحى، والعصر التي أقسم الله بها، وليلة القدر التي أنزل فيها القرآن الكريم، فالقسم يدل على شرف المقسم به.

بيَّنَ القرطبي وإبن عاشور أن مدحَ الله سبحانه وتعالى الأمكنة مثل المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، والطور، وغيرها من الأماكن التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بما شهدته من أحداث مرَّ بها الرسل.

تبدت أهمية مدح الأطعمة والأشربة عند القرطبي وإبن عاشور في بيان فضل الله سبحانه وتعالى، وإبراز منّته عليهم، لكي يشكروها، فبالشكر تدوم النعم.

المطلب الثاني: النتائج المستخلصة من منهج القرطبي في تناول آيات المدح والثناء ومنهج إبن عاشور في تفسير آيات المدح والثناء

1 ـ تناول كل من القرطبي آيات المدح والثناء فاستعرضا لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وأهل التفسير تأييداً لما ذهبا إليه حول معناها، لكن القرطبي توسع في هذا النقل أكثر من إبن عاشور.

2 ـ أفاد القرطبي وإبن عاشور من علم اللغة في تفسير آيات المدح والثناء، وظهر اهتمام القرطبي بالمعاني اللغوية والشروح أكثر، حتى يمكن أن يعد تفسيره معجماً لغوياً، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن القرطبي كان يميل إلى معنى المفردة أو الكلمة استناداً إلى الراجح من معنى الكلمة عند أئمة اللغة ومن الاستشهاد بكلام العرب شعرها ونثرها.

3 ـ اعتمد القرطبي وإبن عاشور على علم القراءات، ولكن القرطبي كان يذكر القراءة الشاذة بالإضافة إلى المتواترة، أما إبن عاشور فقد اقتصر على القراءات المتواترة المعروفة كقرءاة حفص والكسائي وحمزة وإبن عامر ونافع وأبي عمرو وإبن كثير ويعقوب وخلف وأبي جعفر.

4 ـ استند الإمامين القرطبي وإبن عاشور إلى توضيح ما جاء من أحكام فقهية في آيات المدح والثناء، وينتسب كل منهما إلى مذهب الإمام مالك، وقد نقلا ما في المذهب المالكي من أقوال لكن دون تعصب وظهرت شخصيتهما الاجتهادية في كثير مما نقلاه من أحكام.

5 ـ أفاد إبن عاشور من علوم البلاغة والنحو في إظهار الإعجاز القرآني فاهتم بقضايا علم المعاني خصوصاً مثل الأدوات ومباحث الإنشاء والخبر وأساليب الأمر والنهي والاستفهام والفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف، كما اهتم بالتشبيه والتمثيل، بينما كان اعتناء القرطبي بعلوم البلاغة قليلاً جداً.

6 ـ اهتم القرطبي وإبن عاشور بعلم التاريخ في إيضاح ما جاء في آيات المدح والثناء من حوادث وقصص وأخبار، ونقلا من الاسرائيليات، وبرز عندهما منهج النقد والاختيار وتوجيه الأقوال والآراء مستدلين بالصحيح من الأحاديث النبوية والقرائن العقلية.

7 ـ برز اهتمام إبن عاشور بعلم الهيئة (الفلك)، وكذلك بالعلوم الكونية في تناول آيات المدح والثناء، بينما لم نجد ذلك عند الإمام القرطبي.

الخاتمة

نصل إلى ختام البحث الذي تناول (آيات المدح والثناء في القرآن الكريم/دراسة موضوعية)، ولم يبق إلا أن نستعرض أهم النتائج التي وصل إليها الباحث وبالله التوفيق:

1. لم ترد كلمتي المدح والثناء في الاستعمال القرآني صراحةً، ولكن برز المدح والثناء بما جاء من صفات تشعر بالتعظيم، وفي ثناء الله على ملائكته وكتبه ورسله وعباده المؤمنين بأساليب ومعاني مختلفة منها بشكل مباشر ومنها عبر الكناية والوصف.

2. أثنى الله تعالى على نفسه بصفاته التي تدل على عظمته وقدرته وجبروته وغناه، وقد تناول القرطبي وإبن عاشور هذه الصفات ونفوا عنها الشبه بما يمتلكان من ثقافة في علم الكلام.

3. أثنى الله تعالى على كتبه السماوية لأنها منابر النور والهدى، وفيها تفصيل الشريعة والأحكام، وهي دلال الهداية في كل زمان ومكان، وقد بين القرطبي وإبن عاشور ثناء الله على كتابه المعجز القرآن بتحدي الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله.

4. أثنى الله تعالى على طوائف وجماعات في كتابه العزيز مثل الإسراع في الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثبات على الإيمان والوفاء بالعهد والصبر، والصدق، والأمانة، والكرم.

5. أثنى الله تعالى على أماكن مخصوصة مثل المسجد الحرام والمسجد الأقصى وجبال وأنهار وبقاع ومواضع لبيان شرفها لارتباطها بما مر به الرسل من أحداث.

6. في سياق المقارنة بين منهجي القرطبي وإبن عاشور في تناول آيات المدح والثناء تبين اهتمام القرطبي بالمعنى اللغوي واشتقاق الألفاظ والنقل عن أئمة اللغة والنحو والاهتمام بالأحكام الفقهية، في حين اهتم إبن عاشور بالسياق وعلوم البلاغة في بيان الإعجاز القرآني، ونقد الأحداث التاريخية بالقرائن العقلية والنقلية، والاستناد إلى العلوم الكونية.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- إبن الأبار البلنسي، محمد بن عبد الله، **التكملة لكتاب الصلة**، تح: عبد السلام الهراس، (بيروت: دار الفكر، 1995م) .
- إبن الأبرص الأسدي، عبيد، **الديوان**، شرح: أحمد عدرة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1994م) .
- إبن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، **اللباب في تهذيب الأنساب**، (بيروت: دار صادر، د.ت.ط) .
- إبن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف المعروف، **غاية النهاية في طبقات القراء**، (القاهرة: مكتبة إبن تيمية، 1351هـ) .
- إبن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف شمس الدين، **غاية النهاية في طبقات القراء**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1351هـ) .
- إبن الخوجه، محمد الحبيب، **جواهر الإسلام**، (السنة العاشرة، العدد: 4، 1978م) .
- إبن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، (دمشق ـ بيروت: دار إبن كثير، ط1، 1986م) .
- إبن أنس، مالك الأصبحي، **الموطأ**، تح: محمد مصطفى الأعظمي، (أبو ظبي/الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان، ط1، 2004م) .
- إبن حبان، محمد البستي أبو حاتم، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تح: شعيب الأرناؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988) .

- إبن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ) .
- إبن حنبل، أحمد الشيباني، **المسند**، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م) .
- إبن خلدون الحضرمي، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1988م) .
- إبن خلكان الإربلي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط7، 1994م) .
- إبن خلكان، شمس الدّين أحمد بن محمّد ت681هـ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ممّا ثبتَ بالنّقلِ أوِ السّماع أو أثبتَه العَيان**، تح: إحسان عبّاس، (دار صادر، بيروت، ط1، 1994م) .
- إبن ربيعة العامري، لبيد، **شرح الديوان**، تح: إحسان عباس، (الكويت: التراث العربي، 1962م).
- إبن سالم مخلوف المالكي، محمد بن محمد بن عمر، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، علق عليه: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003م) .
- إبن سيده المرسي، علي بن إسماعيل، **المحكم والمحيط الأعظم**، تح: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م) .
- إبن عاشور التونسي محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط1، 1984).

- إبن عاشور التونسي محمد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1957م) .
- إبن عاشور التونسي محمد الطاهر، **نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم**، (القاهرة: المطبعة السلفية، 1344هـ) .
- إبن عاشور، **الحركة الفكرية والأدبية بتونس**، (تونس، 1983م) .
- إبن فرج، محمد بن أحمد ابن عثمان الشمس الذهبي، **تاريخ الإسلام**، تح: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م).
- إبن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب، **بدائع الفوائد**، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت).
- إبن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، تح: حسين بن عكاشة بن رمضان، (الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم، دار إبن حزم، ط1، 2020م).
- إبن مسلم الصحاري، **الإبانة في اللغة العربية**، تح: مجموعة من المحققين، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 1999م).
- إبن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ).
- إبن هشام، عبد الملك الحميري جمال الدين، **السيرة النبوية المعروفة بسيرة إبن هشام**، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، (القاهرة: مصطفى البابي الحبي، ط2، 1955م).
- أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، **الكليات/معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).

- أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد، **الحجة للقراء السبعة**، تح: بدر قهوجي وبشير جويجابي، (دمشق . بيروت: دار المأمون للتراث، ط3، 1993م).
- أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م).
- الأزدي، محمد بن الحسن بن دريد، **جمهرة اللغة**، تح: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987م).
- الإشبيلي أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي ت: 379هـ: **طبقات النحويين واللغويين**، تح: محمد أبو فضل إبراهيم، (مصر: دار المعارف، ط2، د. ت).
- امرؤ القيس إبن حجر الكندي، **الديوان**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، د...ت).
- الآملي، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري ت: 310هـ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م).
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، **صحيح البخاري**، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ).
- البرهانفوري، علي بن حسام الدين، **كنز العمال**، تح: بكري حياني وصفوة السقا، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981م).
- البعلي محمد بن أبي الفتح شمس الدين، **المطلع على ألفاظ المقنع**، تح: محمود الأرناؤوط وياسين الخطيب، (الرياض: مكتبة السوادي، ط1، 2003م).

- البغوي، عبد الله بن محمد: **معجم الصحابة**: تح: محمد الأمين الجكني، (الكويت: دار البيان، ط1، 200م).
- البكري ميمون بن قبس، **ديوان الأعشى**، شرح وتحقيق: محمد حسين، (بيروت: المكتب الشرقي، د.ت).
- بلقاسم الغالي، **شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور/ حياته وآثاره**، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1996م).
- بن شاكر محمد الكتبي، **عيون التواريخ**، تح: نبيلة عبد المنعم داود وفيصل السامر، (بغداد: منشورات وزارة الثقافة، 1984م).
- تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، (الرياض، القاهرة: دار هجر، ط2، 1413هـ).
- الترمذي محمد بن عيسى، **السنن**، تح: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م).
- التهانوي محمد بن علي بن محمد حامد، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تح: علي دحروج، ترجمة: عبد الله الخالدي، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م).
- التونجي، محمد، **المعجم المفصل في الأدب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1999م).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تح: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987م).
- الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م).

- حسان بن ثابت الأنصاري، **الديوان**، قدم له: عبد مهنا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1994م).
- الحميري نشوان بن سعيد، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تح: مجموعة من المحققين، (بيروت ـ دمشق، دار الفكر المعاصر، ط1، 1999م).
- الحيالي معن توفيق دحام، **المدح والذم في القرآن الكريم**/دراسة موضوعية، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
- الديلمي، شيرويه بن شهريار، **الفردوس بمأثور الخطاب**، تح: السعدي زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 986م).
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، تح: مجموعة من المحققين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م).
- الزركلي خير الدين، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م).
- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله ت: 538هـ، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ).
- سهل أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن، **الفروق اللغوية**، تح: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ت).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، **طبقات المفسرين**، تح: علي محمد عمر، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1396هـ).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا/لبنان: المكتبة العصرية، دت).

- الصفدي، خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، 2000م).
- الصنعاني عبد الرزاق، ابن همام، **المصنف**، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي، 1403هـ).
- الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تح: حمدي السلفي، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط2، 1994م).
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **العين**، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت).
- الفيروزآيادي، محمد بن يعقوب أبو طاهر، **القاموس المحيط**، تح: نعيم العرقسوسي، (بيروت: الرسالة، ط8، 2005م).
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت).
- القرطبي، إبن فرح القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964م).
- القرطبي، إبن فرح القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، **التذكار في أفضل الأذكار**، تح: فؤاد زمرلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1408هـ).
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية ط2، 1964م).

- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية ط2، 1964م).
- القزويني، محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت).
- القشاشي، أحمد بن محمد المقدسي الدجاني، **السمط المجيد في سلاسل أهل التوحيد**، تح: عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت: ناشرون، د. ت).
- مرتضى الزبيدي، حمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح: مجموعة من المحققين، الكويت: دار الهداية، د.ت).
- مجموعة من المؤلفين، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ت).
- مجموعة من المؤلفين، **موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة**، (مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د. ت).
- المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تح: إحسان عباس وآخرون، (بيروت/طرابلس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2012م).
- مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 2001م).
- المزني، زهير بن أبي سلمي، الديوان، **شرح أبو العباس ثعلب**، تح: فخر الدين قباوة، (دمشق: مكتبة هارون الرشيد، ط 3، 2008م).

- مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت).
- مغلطاي، علاء الدين ابن قليج الحنفي ت76هـ، **إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، (دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط1، 2011م).
- المقري التلمساني، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1997م).
- المناوي، عبد الرؤوف بن تاج الدين بن علي الحدادي، **التوقيف على مهمات التعاريف**، (القاهرة: عالم الكتب ط1، 1990م).
- المنصف الشنوفي، **مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تونس**، (تونس: حوليات الجامعة التونسية، العدد: 3، سنة 1966م).
- نكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، **دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون**، ترجمة: حسن هاني فحص، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م).
- الهجراني، الطيب بن عبد الله، **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**، عني به: خالد زواري وبوجمعة مكي، (جدة: دار المنهاج: ط1، 2008م).
- الهروي، محمد بن أحمد الأزهري أبو منصور، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي: ط1، 2001م).
- الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تح: حسام الدين القدسي (القاهرة: مكتبة القدسي، 1994م).

- الواحدي، علي بن أحمد بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي ت: 468هـ، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994).
- اليعمري إبراهيم بن علي ابن فرحون المالكي، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تح: محمد الأحمدي أبو النور، (القاهرة: دار التراث للنشر، د.ت).

السيرة الذاتية

أكمل الباحث دراسته الابتدائية في مدرسة أحمد شوقي، ومن ثم درس المرحلة المتوسطة والثانوية، وتخرج من كلية الإمام الأعظم سنة 2017م، يعمل حاليا موظف في مايسمى ديوان الوقف السني في العراق، والتحق في جامعة كارابوك في عام 2020م لاكمال دراسة الماجستير بقسم العلوم الإسلامية الأساسية.

KURTUBÎ VE İBN ÂŞÛR TEFSİRLERİNDE ÖVGÜ VE TAKDİR AYETLERİ: OBJEKTİF ARAŞTIRMA

2023
YÜKSEK LİSANS TEZİ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ

Tareq Hussein JUMAAH

Tez Danışmanı
Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI